

عَظِيمًا مِنْ تَحْتِهَا الصَّفْرَاءُ



عطاء من تحت الصقر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
(شراء) (مكتبة الاسكندرية)

رقم التسجيل ١٩ - ٥٩



DAR AL AMEEN

طبع - نشر - توزيع

القاهرة : ١ ش محمد محمود

باب اللوق (برج الأطباء)

تليفون : ٣٥٥٨٤٦١

الجيزة : ١ ش سوهاج - من

ش الزقازيق - خلف قاعة

سيد درويش - الهرم

جميع حقوق الطبع

والنشر محفوظة للناسخ

ولا يجوز إعادة طبع

أو اقتباس جزء منه بدون

إذن كتابى من الناسخ

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الإيداع ١٩٩٤/٢٤٤٤

I.S.B.N.

977-5424-45-3

مجدى کامل

عُظْمَاءُ مِنْتَحَاتِ الصِّفْرِ



إهداء

إلى زوجتي ساجدة وابني أحمد وابنتي
سلمى ...

أهدي هذا الكتاب

سجدي

تقديم

تكثر هذه الأيام بعض الدعاوى المغرضة ، والآراء الهدامة ، التي تريد أن تجرد عظماء التاريخ من عظمتهم ، وتفرغ تراث الإنسانية الخالد من محتواه .

وقد وجدنا أن عملية الإبادة التاريخية هذه لا تجري فقط في العالم الخارجى ، وإنما أيضا في عالمنا العربى الكبير .. ونحن نرى في هذا المسلك شرا عظيما يمكن أن يعمل على تحطيم مكانة عمالقة عاشوا بيننا ذات يوم ، وأثروا حياتنا بخلصة فكرهم ، وعصارة إبداعهم ، وأضاءوا لنا الطريق نحو مستقبل أفضل .

ومن هنا جاء التفكير في إعداد هذا الكتاب الذى نحاول فيه أن نبين كيف كان طريق البطولة شاقا ، وكيف كان بلوغ العظمة له ثمن غالٍ فاحش الغلاء ، وكيف كان عظماء التاريخ يدفعون هذا الثمن عن طيب خاطر ، ودون تردد ، حتى يمسخوا عن جبين الإنسانية دمعة ، أو يرسموا على شفاها بسمة .

وقد روع المؤلف ما يردده بعض المفكرين للأسف أن البطل وليد عصره ، لا بد أن يتمخض عنه جيله ، أى أنه بطل رغم أنفه ، لأن عصره هو الذى جعل منه بطلا ، وما كان يستطيع أن يكون غير بطل !

أى هراء هذا ، وأى جحود ، أبهذه البساطة نجحد
العظمة ، ونهون من قدر العظماء ، ونجعلهم مجرد آلة أوجدتها
العصر !

كما روع المؤلف ما قرأه على صدر بعض صحفنا
ومجلاتنا من أن قرب « فلان » من موقع السلطة ، أو
« الأحداث » بحكم موقعه جعل منه مفكراً أو كاتباً
مشهوراً .. وهنا نجد الكاتب أو المفكر من جميع أسلحته
وقدراته ومواهبه ، ونحيل إبداعاته ، ونتأججه الفكرى أو
الثقافى إلى قربه من مؤسسة السلطة أو صنع القرار .

ومن أسوأ ما شهدته التسعينيات هو تلك الحملة
الشرسة والضارية التى قادتها أقلام بعض مرتزقة الفكر من
كتاب السير الذاتية الجدد لتشويه قادة الفكر والتنوير ، أو
رجال العلم والتطوير ، وإظهار جوانب مظلمة لم تكن
أبداً فى حياتهم ، وإنما التفسير الذاتى المغرض للتاريخ
وراء ذلك .

ومن هؤلاء الكتاب من يقبض الثمن ، أى أنه للأسف
مجرد أداة تحاول تحطيم ما شيدته العظماء لأنفسهم من مجد
لحساب جهات تقدم لهم الثمن والاسم المطلوب اغتيال
مكانته .

وقد رأينا أنه من واجبنا أن نقدم من جديد حياة بعض
عظماء التاريخ الذين لاقوا الهوان ، وذاقوا الأمرين ، قاسوا
الويلات ، وتكبدوا المشاق ، حتى قدموا للإنسانية المعذبة
ما يستحق الذكر .

وفى هذا الكتاب سنجد أن هناك خيطا واضحا يربط بين جميع شخصياته العظيمة ، وهو مولدهم فى بيئات فقيرة ، ونشأتهم فى ظروف حياتية عصيبة ، وتعرضهم لشتى صور البؤس والشقاء ، وتجربتهم كل كتوس الذل والهوان ، وهم لتوهم يبدأون أولى خطواتهم فى مشوار الحياة .. ومع ذلك لم يهنوا ، ولم يضعفوا ، وإنما استجمعوا ما تبقى من قواهم التى خرجوا بها من معركتهم مع ظروف وأوضاع لا ذنب لهم فيها ، ووقفوا صامدين ، يصنعون ويعيدون كتابة التاريخ فى ملاحم بطولية رائعة .

هذا الكتاب يتحدث عن عظماء التاريخ الذين انهالت عليهم الأحجار فخرجوا من تحتها شاغخين .

مجدى حسين كامل



سقراط
فيلسوف كل العصور !

هذا الرجل هو أعظم الرجال في العالم القديم . إنه أكثرهم حكمة ، وجرأة ، وشجاعة ، وإقدام ، لقد فضل الموت على أن يتوقف لسانه عن قولة الحق ، أو تراجع أقدامه عن الطريق ، السلى أدرك أنه يحمل الخلاص للإنسانية البائسة . بدأ حياته كفنان ، ثم تحول إلى الفلسفة ، وسرعان ما اكتسب سمعة عظيمة كمفكر أصيل .

قبيل الحكم على « سقراط » بالإعدام تنبأ علانية وعلى مسمع من القضاة بأنه لن يكون الضحية الأخيرة للسلطة العمياء ، وقال : « إن التاريخ سيشهد من بعده أن لا خاتمة ، أو نهاية لقافلة العظماء الذين يقدمون للموت - من وقت لآخر - تارة باسم الشعب ، وتارة باسم الدين ، وتارة أخرى بدافع المصلحة العامة » .

وقال سقراط : « إنه في الجسو المشبع بالخسوف على زوال مكسب ، أو تصدع سلطان ، أو نهاية حكم ، يفقد أولو الأمر رشدهم ، وتُظلم قلوبهم ، ويتخبطون في قراراتهم ، فيصدرون أحكاما على أعظمهم شأنا ، أو أكثرهم علما ، أو أكبرهم حكمة كأنه أحقر وأحط المجرمين » .

ولم يقف سقراط الفيلسوف الحكيم عند هذا الحد ، فقد تنبأ أيضا باليوم الذى سيعود فيه اسمه إلى قائمة الخالدين فقال : « وبعد الحكم الجائر (ضد الحكماء والعظماء) لا يلبث أن يزول الظرف الذى أملى على أولى الأمر حكمهم الجائر ، وتهمد الغلواء ، وترقد العاصفة ، وينقشع الضباب ، وتسطع الحقيقة ، فيأتى بعدهم من يرفع لهم التماثيل في الساحات ، ويزين

المدائن بأسمائهم ، فيخلدون كأكبر المصلحين ، فيما يطوى النسيان ذ
من أقدموا على إدانتهم أو يذكرون في عداد الظالمية .

وما أن انتهى سقراط العظيم من كلمته أو بمعنى أدق نبوءته
حُكِمَ عليه بالموت بشرب السم ، فوضع للقرار الظالم ، واستسلم لنها
ومات سقراط في عام ٤٠٠ قبل الميلاد ؛ ولكنه خلد بفكره ، وأصبح
ذلك الوقت ، وحتى يومنا هذا من عظماء التاريخ . الخالدين الذين لا تز
الأيام إلا توهجا وبريقا .

وتكمن عظمة سقراط في أمور عدة تجمع بينها خيوط متدا
ومتشابكة تصنع في النهاية مجدا لا حد له .

وُلِدَ سقراط في أسرة فقيرة لا تملك حتى ثمن تعليمه المبادئ الأ
القراءة والحساب ، كان أبوه نحاسا مغمورا اسمه « سفرونيسك » وأمه
فاضلة تسمى « فانا ريتا » . ورغم مولد سقراط بمدينة « ألوباس » الم
إلا أنه انتقل مع أبيه إلى أثينا لينشأ هناك ، ويظل يعمل حتى إعدامه .

في البداية ، تعلم سقراط مهنة أبيه ، وأتقنها لدرجة مذهلة ، ورغم
تكن تدر عائدا طيبا في تلك الحقبة إلا أن سقراط كان راضيا قانعا لا
ولا يكل .

وذاث يوم ، حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد دار حوار مثير بينه
نفسه انتهى بتحول خطير في حياته . حدث سقراط نفسه : « إنك
نفسك حتى تنقل صورة جامدة إلى الحجر لا روح فيها ، ولا تفكر
تصقل نفسك فتجعل منها تمثالا حيا يجسد الحقيقة الأعلى » .

وعلى الفور تخلى سقراط عن المطرقة والأزميل وانصرف كلية للبحث عن الحقيقة ، وعندما طالبه والده بالعودة إلى النحت قال : « الأثار الفنية منها بلغت من الجمال تبقى صماء ، أما البشر فينطقون ، وبى حاجة لسماعهم » .

وخلال فترة وجيزة أخذت عبقرية سقراط وخاصة حكمته البليغة تظهر وتشتهر حتى إن أحد أصدقائه ذهب إلى معبد « أبولون » وسأل كاهنة المعبد : « هل فى أثينا من يفوق سقراط حكمة » ، فأجابت : كلا .. وانقل هذا على لسانى إلى سقراط » .

هكذا بدأ سقراط ، وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره طريقه فى الحياة كما رسمه لنفسه ؛ ولكن سقراط الفقير لم يكن لديه ما يدفع منه أجور كبار رجال العلم والفلسفة الذين يفدون لأثينا لتقديم دروسهم لكل من يحب ويهوى .

ومع ذلك ، فقد كان لسقراط عقل راجح ، ورؤية ثاقبة ، وعبقرية مزيدة ، فلم يكن يُسلم بشيء ، أو يأخذه على علمه ؛ بل كان يعمل فكره فى كل شيء فاحصا مستقرئا ، متقصيا ، وقال : « إذا قال أحد إن شيئا هو كذا فهل نسلم بأنه كذلك ؛ أم نفحص ما يقول هذا القائل ١٢ .

ورغم بساطة هذا الموقف إلا أنه كان خطيرا ؛ بل وينذر بشر مستطير ، فقد وجد سقراط نفسه وجها لوجه أمام أقوال السلطة الحاكمة فى أثينا ، وكلام الآلهة . فمن جهة يدرك هو أن الآلهة لا تكذب ، وفى نفس الوقت السلطة الحاكمة لها السمع والطاعة ، ومن جهة أخرى ماذا لو ثبت بالعقل والمنطق والحجة والبرهان أن السلطة والآلهة فى أثينا لا تفعل الصواب ،

ولا تقول الحق ، هذا هو ما حير سقراط ، ويقال إنه من هذه الحيرة وُلِدَ العقل في اليونان القديمة .

رأى سقراط وتبين أن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بالفضيلة ، وما هذه الفضيلة إلا معرفة الخير وعمله ، وعلى المرء أمران في غاية الأهمية ؛ بل هما معيار وجوده ، ودليل كينونته ، البحث عن الخير أولاً ثم عمله أو اتباعه ثانياً .

كما رأى سقراط في بحثه عن الحكمة أن الحكمة الحقيقية هي العمل على نشر الفضيلة بين الناس بالتعليم والقسوة أو « كمال العلم لكمال العمل » .

وأدرك سقراط العظيم أن الفضيلة كائنة في الإنسان ؛ إنها تحجبها ستارات من الأوهام ، والأفكار الخاطئة ؛ لذا قرر أن يأخذ على عاتقه تمزيق هذه الستائر أو الحجب لإخراج الفضيلة من الظلمات إلى النور .

واستقر سقراط عند أسلوب وجد أنه يحقق هذا الهدف ، وتلك الغاية ، وهو توعية الآخرين ، وتنشيط فكرهم فرداً فرداً بأسئلة ومحاورات تنقلهم من حقيقة إلى حقيقة أخرى حتى يصل إلى النتيجة المحتسومة التي ترسو عندها الحكمة والمعرفة ؛ لينطلق الإنسان في تعديل سلوكه ، أو تقويم اتجاهه في الحياة بنبل الشر ، وتسوخي الحق والعدل ، ومقاومة الظلم والقهر أو نصره الضعفاء ، والبؤساء ، والمظلومين .

وأخذ سقراط يجوب شوارع أثينا ، يستوقف الناس ، يتحدثهم ، يحاورهم ، كان يفعل ذلك دون مراعاة شئونه الخاصة ، حتى إن هيئته كانت تنم عن الفقر والتقشف ، قاسى البرد والحر والجوع والظماً في سبيل الرسالة التي أخذ على عاتقه أداءها ، والتي جعلته فيلسوف كل العصور بلا منازع .

وكان يبدأ محاوراته بالأسئلة فيستوقف مثلاً قاضياً ، ويتهم به إلى الاعتراف بأنه مقصر في خدمة العدالة ، مهمل لمصالح الفقراء ، وأن عليه مراجعة ما مضى من حياته ، بعد ما جعله سقراط يعترف بذنوبه ، ويقرر أن يبدأ حياة جديدة يكون فيها القاضى العادل .

وكان لسقراط قدرة على المبادرة اللطيفة ، والحديث العذب ، سياقة الحجج والأدلة والرايين وتقريب الأمور إلى الناس .

واستمر سقراط على هذا النحو أكثر من أربعين سنة ، وكلما كان يكثر أتباعه وتلاميذه ، كان يكثر أيضاً أعداؤه ، ويتضاعف عدد خصومه خاصة وأن نزوله إلى الأسواق واختلاطه بالعامّة كاد يقلب النظام الدينى والسياسى فى أثينا .

وكان من أكثر ما قلب السلطة الدينية والسياسية على سقراط هو عدم تسليمه بما يحكى عن الآلهة الكثيرة الموجودة فى بلاده ، واعتبر أن الديانة التقليدية التى تعتمد آلهة أثينا المتنازعة فيما بينها ليست أساساً سليماً للسلوك الأخلاقى ، وقال : « إن هناك نظاماً للقيم معياره الفضيلة ، ومحكه العقل ، وهو محفور فى ضمير الإنسان ، وليس فى المراسم والطقوس الخارجية .

واجتمع خصوم سقراط بتأييد من حكام المدينة ، وكان أكبر الخصوم ثلاثة هم : « أيتتوس » أحد الزعماء السياسيين ورجال الصناعة الذى أقنع سقراط ابنه بالانضمام إليه ، و « ميلتوس » وهو شاعر شاب مغموّر طلب منه أيتتوس تقديم دعوى ضد سقراط واستعان بخطيب مشهور اسمه « ليكون » ورُفِعَت الدعوى إلى الملك .

تضمنت الدعوى تهمتين لسقراط أولهما : إنه لا يعترف بآلهة المدينة ويعمل على إحلال آلهة جديدة مكانها ، ويفسد الشباب .. أما العقوبة المطلوبة فقد كانت الإعدام .

ورغم محاولات سقراط الدفاع عن نفسه ، ورغم محاولة أتباعه وأنصاره ، وتلامذته التصدي لخصومه وإنقاذه من الموت .

ووسط جموع الأثينيين الغفيرة ، التى تدفقت إلى قصر الملك ، ليشهدوا محاكمة سقراط التى كانت مدبرة من قبل ، وما هى إلا تمثيلية معدة بإتقان ، للتخلص من أعظم رجل عرفه العالم القديم الذى استطاع أن ينزل بالفلسفة إلى رجل الشارع ، ويهبط بها من السماء ، ويجعل لها مكانا بالمدين ، لتدخل المنازل بعد أن حصرها فى البحث عن الحياة والأخلاق .





محمد علي
اعظم الحكام في التاريخ

كان جنديا مغمورا من أسرة فقيرة دفعت به إلى الجيش كى يشق طريقه ، ويجد ما يقيه الجوع والبرد والبؤس والشقاء ، وقد كان يمكن لهذا الصبي أن يتحول إلى رقم يضاف إلى قائمة الجنود ، لولا أنه كان يرى فى نفسه الكثير الذى يمكن أن يفعله فى هذا العالم الكبير ..

هذا هو محمد على أعظم زعماء التاريخ - فى رأى الشخصى - وأحد أفاضل من أنجبت أمة الإسلام ، كما أنه نموذج فريد للقيادة المفقودة ، والزعامة الحقيقية الضائعة فى العالم الإسلامى الذى يتخبط شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، ويهيم على وجهه بلا هوية .

لم يكن محمد على مجرد حاكم جاء على قمة السلطة فى أعظم بلاد الحضارة فى العالم ، بل كان أيضا أكثر من أحبا البلاد التى حكموها ، حبا إيجابيا ، مخلصا ، لا يبغي من ورائه منفعة أو مصلحة ، كما يردد مزيفو التاريخ الذين لم ينهب الأوطان أحد كما فعلوا هم ، ولم يعث فى الأرض فسادا أحد كما فعلوا هم !

كما أن محمد على مؤسس مصر الحديثة الذى يدرس فى جميع جامعات العالم ، وخاصة طريقته فى بناء دولة قوية هو أحد الحكام المعدودين على أصابع اليد الواحدة الذين تولوا الحكم فى دول نامية - حتى وقتنا هذا - بناء على إرادة شعبية ، واختيار شعبى ، وتفويض شعبى .

إن عظمة محمد على أنه لم يكن مصريا ورغم ذلك أصر المصريون وسعوا إليه ، واستماتوا ، وجاربوا وقاتلوا ليولونه حكمهم ، وتحدا الدولة العثمانية

من أجله . فلم يأت هذا الزعيم في انتخابات مزورة ، أو استفتاءات مدبرة ،
أو في انقلاب عسكري ، أو مخطط أجنبي .

وراء هذا الرجل العظيم قصة كفاح قلما نجد لها مثيلا في التاريخ ..
قديما وحديثا .. قصة عاشها العالم كله ، ولا تزال تدرس في كتب التاريخ في
شتى بقاع الأرض .

ولد محمد علي في أسرة متواضعة بمدينة « قولة » إحدى المدن الإسلامية
في البلقان في عام « ١٧٦٩ » ، وهو تركي عثماني مسلم لا يمت للألبانيين
بصلة كما حاول بعض المغرضين أن يروج له ولم ينعم محمد علي بأبيه كثيرا فقد
مات الرجل وتركه صغيرا ، فكفله والى المدينة ضمن من يجمعهم من
الأطفال ليقوم بتربيتهم حتى يكونوا حراسه المستعدين أن يموتوا من أجله .

وتعلم محمد علي اليتم البائس ركوب الخيل ، والمبارزة بالسيف ،
وكيفية مطاردة وتعقب اللصوص وقطاع الطرق ، وأظهر محمد علي رباطة
جأش ، وعزيمة صلبة ، وإرادة حديدية ، وفكر ثاقب ، وقوة قلب غير عادية
ولأن الجندي الشجاع لفت إليه الأنظار ، وأصبح معروفا وسط أقرانه ، ثم
قادته ، ثم الوالى نفسه ، فقد زوجه هذا الوالى سيدة من قريباته ، ورزقه الله
منها بخمس من الأبناء والبنات .

وبعد زواج محمد علي ومولد أول أطفاله اتجه لتجارة الدخان فترة من
الوقت ، خاصة وأن مدينة « قولة » كانت تنتج أجود أنواع الدخان في تركيا
والعالم .

وعندما جمعت الدولة العثمانية جنود القوة التي قررت تركيا نشرها هناك
في أوروبا كان محمد علي أحد الذين تم ضمهم إليها ، حيث أظهر بعد ذلك

فروسية وجندية ، وذكاء ودهاء ، وحكمة قيادية رائعة فتمت ترقية سريعة من رتبة لأخرى أعلى .

وقد كانت تلك القوة ، التي أطلق عليها « القوة الألبانية » لأنها كانت تضم عددا كبيرا من الألبان ، غربية في تشكيلها حيث تجمع داخلها جنودا كانوا قطاع طريق ولصوص ، اللهم إلا قلة قليلة من بينها محمد علي التركي المسلم ممن كانوا جنودا شرفاء وبواسل .

وصدر أمر عثمانى بتوجه القوة الألبانية إلى مصر فقد ترك جلاء الحملة الفرنسية من البلاد فراغا سياسيا وأمنيا رهيبا ، وعاد الأتراك ، والمماليك يعيشون في الأرض فسادا ، يسرقون ، وينهبون ، يروعون الشعب ، ويفرضون الإتاوات قهرا وقسرا .

وما أن وصل محمد علي مع القوة إلى مصر حتى شعر بأن هذه الأرض تجمع كل عناصر الدولة القوية إذا ما تخلصت من قوى الشر والظلم وقيود التخلف والتقاعس عن التحاقه بركب التقدم .

وأخذ محمد علي يظهر أمام المصريين في صورة السوطنى المخلص الذى يموت كمدا لما يراه من انهيار فى بلد يستطيع بلوغ المكانة التى تليق به بين قوى العالم أجمع .

وبدأ نجم محمد علي يبرز ، كما بدأ المصريون يلتفون حوله ، واكتشف قادة الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم ومحمد كريم أن مصر فى حاجة إلى رجل قوى كمحمد على ، وأفكاره العظيمة ، وعقليته الفذة ، وإمامه الشديد بجميع المخاطر التى تحدى بمصر والعالم العربى ، التى أخذت قبضة الدولة العثمانية تضعف عليه مما يجعله عرضه لشتى أنواع الاستعمار الأجنبى ،

والاحتلال من ناحية ، أو استيلاء اللصوص وقطاعى الطرق على ثرواته من ناحية أخرى .

وعندما ساعدت أحوال المصريين مع السيادة العثمانية الذين أعقبوا خروج الفرنسيين من مصر ، طلب المصريون تولية محمد على عليهم فرفض السلطان العثماني ؛ فحاصروا القلعة خاصة بعد ما نجح خورشيد باشا وإلى مصر في استصدار فرمان من الباب العالي بعودة القوة الألبانية ورؤسائها من مصر .

وأمام قوة الإرادة الشعبية والوطنية المصرية التي قامت بممارسة ضغوط لا قبل للأستانة بها نزلت الدولة العثمانية على رغبة المصريين ، خاصة بعد أن اشتعلت ثورة الشعب على الأتراك ، وبالفعل تم عزل خورشيد باشا والموافقة على تعيين محمد على .

ومن عظمة هذا الرجل أنه لم يسع لمنصب ، ولم يلهث وراء سلطان ، ويكفى أن العلماء ، والنقباء ، والزعماء المصريين اجتمعوا بدار المحكمة في يوم الاثنين ١٣ من مايو عام ١٨٠٥ ، وأجمعوا على عزل خورشيد باشا ، وتعيين محمد على ثم توجهوا إليه ، وقالوا له : « إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية » .

فقال محمد على : « ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع محمد على في البداية ، ثم ضغطوا عليه فرضى ، واحضروا له كركا وعليه وقفطان ، وقام إليه عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه إياه ، وكان ذلك في وقت العصر ، ثم بعثوا من ينادون بذلك في المدينة » .

وهكذا فازت إرادة الشعب ، وأثبتت الوطنية المصرية فعاليتها ووجودها
وكان انقلابا خطيرا في موازين القوة فقد تحدت مصر الدولة العثمانية ،
وأجبرتها على الاعتراف بحق المصريين في تقرير مصيرهم لأول مرة في التاريخ
الحديث ، كما كانت إرادة الشعب - لأول مرة - لها اليد العليا في اختيار من
يحكم البلاد .

ورغم أن تركيا خلعت على محمد علي - مضطرة - لقب البشوية ، ورغم
أنه قد جرت العادة على أن ينغمس الولاة في ملذاتهم ، ويمجرون وراء شهواتهم
ولا يهتمون إلا بجمع المال ، وفرض الضرائب ، والتنقل بين أحضان النساء ،
وارتكاب شتى أنواع الجرائم ، وعدم توخى العدل ، ونهب ثروات البلاد ..
رغم كل ذلك ، كان محمد علي نموذجا مختلفا تماما . لقد كان في جعبته ما هو
أعلى ، وأقدس ، وأهم بكثير من تلك الصغائر التي لم تكن لترضى رجلا
عظيما نادر الوجود كمحمد علي .

لقد شعر محمد علي منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها الحكم أنه جلس
على عرش مملكة عظيمة ، أفسدها ولاتها السابقين وسياساتهم التخريبية ،
فقرر انتهاج سياسات أخرى من شأنها الارتقاء بمصر وأعزازها كدولة
إسلامية ، فعكف على العمل المضنى والسريع ، وبدأ الإصلاح الشامل ،
وبناء قوة تصون تراب الوطن ، وتحمى حماه .

في البداية ، رأى محمد علي أن الإصلاح لا يمكن أن يتم دون القضاء
على اللصوص ، وسارقي ثروات البلاد ، وكسر شوكة المماليك الذين يعيشون
في البلاد فسادا .

وبالفعل قضى محمد علي على المماليك وألغى نظام الالتزام الجائر ،
وقضى على القوات العسكرية القديمة وتخلص من الجنود الغير نظاميين .

ويبدو أن تولى هذا الرجل حكم مصر بهذه الطريقة المثيرة ، قد فتح أعين الإنجليز ، الذين شعروا بخطورة هذا القائد العظيم ، فأرسلوا حملة بقيادة فريزر في عام ١٨٠٧ ، واتصلوا بالماليك لمساعدتهم على استعادة حكم مصر .

ولكن محمد علي وبمساندة الإرادة الشعبية تمكن من هزيمة الإنجليز الذين لم يجدوا في النهاية مفرا من الجلاء عن مصر .

وفي عام ١٨١١ وبينما محمد علي يقاتل لمحاربة فلول المماليك الهاربة هنا وهناك ، مع مراقبة أمراءهم مراقبة لصيقة حتى لا يستعيدوا نفوذهم من جديد ، طلبت تركيا منه إرسال جيش إلى الجزيرة العربية لمحاربة الوهابيين ، وخشى الرجل من استيلاء المماليك على السلطة في مصر ، فقرر التخلص منهم بصفة نهائية ودبر مذبحة القلعة ليخلص البلاد والعباد من شرهم .

وبدأ محمد علي في ظل الاستقرار الأمنى الجديد في بناء الدولة الحديثة متسلحا بآخر ما وصل إليه العالم المتطور ، من خلال استقدام العلماء أو إرسال البعثات حتى أصبحت مصر أقوى دولة في الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد اعتمد محمد علي في بناء الدولة على تكوين جيش مصرى جديد وأسطول قوى يحمى سواحل مصر ، وتنظيم الإدارة وإنشاء الدواوين (الوزارات) والارتقاء بالتعليم بفتح المدارس و« الكليات » ، وعمل نهضة فكرية ، والنهوض بالزراعة والصناعة والتجارة .

وقد أثبت الجيش المصرى الجديد كفاءة نادرة في حروبه في الشام وآسيا الصغرى لتنمية موارد مصر ، وحماية البوابة الشرقية ، وأنشأ محمد علي ترسانة الإسكندرية واشترى سفن حربية من أوروبا حتى أصبح للبلاد أسطول

رهيب دفع إنجلترا وفرنسا وروسيا للتآمر عليه ، ومحاولة تحطيمه في موقعة
نوارين عام ١٨٢٧ .

وعلى مستوى التعليم أنشأ محمد على المدرسة الحربية - الكلية الحربية
اليوم - والمهندسخانة (الهندسة) والطب والألسن والصيدلة ، والزراعة ،
والطب البيطرى ، والفنون والصناعات ، والمدارس الابتدائية والثانوية ،
وبعث أبناء مصر إلى الخارج وأنشأ مطبعة بولاق عام ١٨٢١ ، وأصدر
صحيفة « الوقائع المصرية » والكتب الثقافية .

وفي الزراعة نحن ندين لهذا الحاكم العظيم بمعظم إنجازاتنا التى
ورثناها فى عام ١٩٥٢ ، وقمنا - فيما بعد - بتخريبها وتدميرها للأسف !

فقد قام محمد على بعمل مسح شامل على الأراضى الزراعية وتحديد
الضرائب على الفلاحين بعد توزيع الأراضى عليهم ، وقام بزيادة المساحات
المزروعة ، واستصلاح مساحات واسعة شمال الدلتا ، وشق ترعا كثيرة منها
المحمودية والمنصورية والباجورية ، وأنشأ القناطر العديدة لضبط عمليات
الرى ومنها القناطر الخيرية على رأس الدلتا ، وكفى أن مساحة الأراضى
أصبحت ضعف ما كانت عليه قبل حكمه .

وتمكن محمد على من تنويع الإنتاج الزراعى باستحداث أنواع جديدة ،
وخاصة بالنسبة للقطن الذى أصبح أهم صادرات مصر .

كما اهتم محمد على بالتجارة وكان الأسطول المصرى وميناء الإسكندرية
الذى قام بإصلاحه من ركائز صادرات مصر إلى العالم الخارجى .

واستطاع محمد على أن يسترد الحجاز من أيدي الوهابيين ، ويدخل
الدرعية ويأسر عبد الله بن سعود أمير نجد ليخلص الحرمين الشريفين من

أيدي الوهابيين الذين كانوا قد عظم خطرهم في نجد والحجاز وهددوا العراق والشام ، وأصبح ابنه إبراهيم واليا على الحجاز .

وضم محمد على اليمن والسودان بالإضافة إلى الشام والجزيرة العربية ، وأصبحت مصر أقوى امبراطورية في المنطقة ، بل إن إنجلترا وحدها أو فرنسا وحدها لم تكن تستطيع أن تمتلك ما لدى مصر من قوة ونفوذ وسلطان .

لكن إنجلترا لم ترص عن التوسع المصري وحاولت الضغط على مصر للخروج من اليمن ، والجزيرة العربية والاكتفاء بمصر والشام والسودان .

وهكذا قامت في الشرق دولة عربية كبرى كأول محاولة لجمع العرب في كيان مستقل عن الدولة العثمانية .

وقد حاول مزيفو التاريخ تصوير هذا العملاق الذي وصفه الغرب بأنه « مؤسس مصر الحديثة » و « صاحب العقلية الخارقة » و « القائد العظيم » في صورة الأجنبي الدخيل الذي حاول أن يبنى امبراطورية لنفسه ، ويستقل بثروات البلاد ، لإرضاء أطماعه ، ومصالحه . إنها البلاهة والسفه أن نقول هذا على هذا المحب المخلص الذي لم تعرف مصر أو العرب من يستطيع المرور بها في هذا العالم المتلاطم الأمواج كهذا الرجل .

والسؤال هو لماذا جمع محمد على السلطات في يده .. أليس لتحديث البلاد ؟ لماذا بنى الجيش .. أليس للدفاع عن مصر ؟! ونقل رقعة الحرب خارج الحدود المصرية .. لماذا يأمر محمد على بزراعة الأشجار على النيل التي قمنا نحن للأسف بقطعها ؟ لماذا أرسل المصريين في بعثات إلى العالم المتقدم ؟، لماذا أنشأ مطبعة وأصدر صحيفة ؟ لماذا .. ولماذا .. ولماذا ؟! أسئلة وأسئلة رغم أن إنجازات هذا الرجل العظيمة لا تحتاج إلى كلام .

وهناك من يتهم محمد على بالدكتاتورية ، وهذا أمر في غاية الغرابة لأننا نسقط من حسابنا هنا الحقبة التاريخية التي عاش فيها محمد على ، ويكفي أن نعرف أن فرنسا أكبر الديمقراطيات في العالم في ذلك الوقت كان حق الانتخاب فيها مقيدا بنصاب مالى قدره ١٥٠ فرنكا ١١ .

إن احداً لا يستطيع أن يجرد محمد على من عظمته أو يجرد المصريين الأوفياء غير الأفاقيين أو المضللين من اعترافهم بفضل محمد على على هذه الأمة العظيمة التى كان من العدل أن يحكمها رجل في عظمة هذا القائد الملهم ، والسياسى البارع ، والمصلح الأعظم ، الذى أحب مصر أكثر ممن عداه من الحكام الذين تعاقبوا عليها .

رحم الله محمد على ذلك الجندى المغفور الذى مات أبوه وتركه وحيدا يهيم على وجهه بلا هوية حتى التقطه أحد الولاة الذين توسموا فى الصبى خيرا ، واكتشفوا فيه ما أثبتت الأيام أنه لم يكن عرضيا ، وإنما كان متأصلا فيه .

إن العظمة فى محمد على هى أن بطولته وقوته وعظمته لم تكن نوعا من التهور أو الطنطنة أو الهلطقة ، لم تكن عظمة محمد على فى نبرات صوت مجلجلة ، ولا عبارات تهيج للناس مزلزلة ، أو افتعال عداوات ومشكلات وأحداث لا مبرر لها ، إن عظمة محمد على كانت تكمن فى أنه فعلا عظيم بل إن ما فعله هذا الرجل يدفعنا إلى القول بأنه فعلا أعظم الحكام فى تاريخ العالم كله .





ليوناردو دافنشى
وأجمل ابتسامة عرفها العالم !

الناس لا تعرف عنه سوى أنه كان عبقرية فذة في التصوير والنحت ..
وما يذكر اسمه إلا ويتبادر إلى الزمن أعظم أعماله ، وأشهر لوحة فنية عرفها
التاريخ ، ومع ذلك فقد كان صاحبنا عبقرىا في مجالات أخرى كثيرة ..
إنه أحد العظماء الذين قلما يجود علينا الزمان بمثله .

كان الفنان العظيم ليوناردو دافنشى يرسم لوحته الشهيرة « الموناليزا »
أو « الجيو كنده » كما تسمى ، عندما توقف فجأة ، ووضع ريشته جانبا ،
واستأذن الموناليزا الحقيقية التى تجلس أمامه بوضع دقائق ، وبينما السيدة
الرائعة الجمال تنتظر فإذا بعدد كبير من الموسيقيين يدخل الغرفة ، ويبدأ فى
عزف أرق الألحان .

فى البداية ، شعرت السيدة الفاتنة بدهشة ما بعدها دهشة ..
ارتكبت .. ضحكت .. بكّت .. وهمت بالانصراف فإذا بدافنشى يبلغها
بمتمهى اللطف أن كل هؤلاء من أجلك سيدتى ! لقد بعثت فى طلبهم حتى
يعزفوا لك بديع الألحان لكلى تحتفظى لى بأبستامتك الرائعة .

وبمجرد أن وضع دافنشى اللمسات الأخيرة من لوحته الخالدة ، أمسك
بقلمه ، وأخذ يكتب فى مذكراته مصورا أحاسيسه ومشاعره فى هذه اللحظة
التاريخية : إن جميع الحواس لتتمنى أن تلتهم صاحبة هذه اللوحة التهاما ،
وخاصة هذا الفم الرشيق الذى يشتهى كل جسد أن يكون له مثله ! أما
صاحبه اللوحة ، واسمها « موناليزا » زوجة « فرانسيسكو جيوكوندو » أحد
أعيان فلورنسا فقد قالت : « هذه اللوحة ستمد عمرى لقرون » !!

والحقيقة ، أن ما من مصور ، أو رسام عرفه العالم انبهر بعمله ، أو افتن بلوحة رسمها كما حدث مع دافنشى ، حتى إنه قال : « سيظل العالم بعد مماتى يتأمل هذه اللوحة ويتساءل كيف نقلت ملامح هذه المرأة ، وخاصة ابتسامتها بهذا القدر من العظمة » .

ولكن هذا الفنان العظيم ولد من رحم البؤس ، ونشأ بين أحضان الأسى والشقاء ، بل وكانت هناك وصمة عار لا ذنب له فيها ظلت تطارده طيلة حياته ، وتحط من قدره أمام بعض الرعاع من الناس الذين كانوا ينظرون إليه بعيد الحسد .

فقد أدرك دافنشى بمجرد أن وعى المحيط الخارج للفراغ الذى يمثله جسده ، أن أمه ولدته نتيجة لزواج غير شرعى بأحد الموثقين واسمه «بيرو» .

وما أن عرف الصغير أن أبيه اسمه «بيرو» وأنه يستطيع الوصول إليه ، حتى أدرك أنه مات ، وترك من أربع زوجات عشرة ذكور ، واثنتين .

وقد استهات دافنشى لكن يعترف إخوته به كابن شرعى ، وأن يكون له نسب كبقية إخوته ، إلا أنهم كانوا يخشون إن فعلوا ذلك ، أن يقاسمهم ما تركه الأب من ثروة ضخمة .

وهكذا وجد دافنشى نفسه ، بلا نسب ، وبلا لقب يقدم به نفسه إلى الناس ، وقد ظل دافنشى الذى اختار لنفسه هذا اللقب أن يقاسى الفقر والعوز مع أمه حتى رحل وتركته وحيدا فى بحر الحياة الهائج .

ويبدو أن القدر أبى إلا أن يعوض صاحبنا عما يكابده فى حياته خير تعويض ، فقد بزخ نجمه ، وعلا اسمه ، حتى بلغ الآفاق ، ولم تقف مواهبة شهرته عند التصوير والنحت وإنما تجاوز ذلك حتى كان هو عبقرى فى مجالات شتى .

فقد كان عالما في الميكانيكا ، والتشريح ، والاستاتيكا والديناميكا ،
والموسيقى ، والغناء ، والجيسولوجيا ، والهيدروليكا ، وعلم الحرارة ،
والسّمعيّات والهندسة العسكرية والعمارة .

كما كان حجة في علم الأخلاقيات والفلسفة واللغة اللاتينية ، كما كان
موسوعة من العلوم والفنون .

وقد أثار دافنشى دائما حوله خصومات لا حدها ، خاصة وأنه كان
معبود النساء بقوة بنيانه ، ورشاقته ، ووسامته ، وعدوبته حديثه ، وحلو
معشره ، وقوة حجته .

ولأنه ما من عظيم إلا وتعرض للمكائد والمصائب لكثرة خصومه ،
وأعدائه ، فقد كان على العبقري دافنشى أن يواجه سلسلة لا حصر لها من
المؤامرات والافتراءات ، والاتهامات ، والأكاذيب الملفقة .

فقد حاول خصومه الترويج لفكرة مؤداها أنه شاذ جنسيا وفاسد خلقيا
كما بعث أحد خصومه بشكوى لا تحمل توقيعا إلى القصر يتهم دافنشى
بالفسق ، ولكن التحقيق معه أثبت براءته من هذه التهم مما جعل أعداءه
يشتاظون غيظا .

ورغم أن دافنشى قد اعتقد أن خصومه سوف يتوقفون عن مهاجمته بعد
كل ما جرى إلا أنهم عادوا ليوجهون إليه اتهامات عقوبته الإعدام إذا ما ثبت
عليه .. هذا الاتهام هو الكفر والإلحاد ، وقد حاول أعداؤه الاستفادة من
موقف دافنشى المعروف للجميع من حيث كراهيته للطقوس الكهنوتية
المعقدة وسيطرة رجال الكنيسة ، والتصاقه بدعاة التحرر وترويجه للأفكار
التحررية ، وكما استطاع دافنشى أن ينفي عن نفسه التهمة الأولى ..
والثانية .. والثالثة نفى الأخيرة وما بعدها أيضا .

ولكن شرور العالم الذى كان يحيط به ، جعله يغلق على نفسه ، ويمحيا فى
عالمه الخاص ، فقد أحب العزلة ووجد لها الحل الوحيد للتركيز والإبداع
واتقاء شرور خصومة ، ويقول دافنشى عن ذلك : « الخلوة هى أم الحرية ،
فإذا ما كنت وحيدا فأنت ملك لنفسك ، وإذا كنت مع رفيق واحد فلن
تملك إلا نصفك » .

وقد كان دافنشى يخلق كطائر فى آفاق المعرفة الواسعة ، كما كان يخلق
أيضا كطائر فوق كل ما تحوى الطبيعة من جمال ، كان يتسلق الجبال ، يرقب
الطيور ، والحيوانات ، يدرس حركاتها ، وكما بلغ دافنشى شهرة واسعة ، بلغ
أيضا ثروة عظيمة ، ولكنه كان متقشفا بطبعه ، يكره المال ويحتقره ، وكان
يقول عن المال : « كل ما تنفقه على نفسك ملك لك ، وكل ما تجمعه ولا
ينفعك فى حياتك ملك لغيرك ، على الرغم منك » .

وقد كان لدافنشى قلبا يمكن أن يضم بين جناحيه كل الناس .. كان
طيبا لا يؤثر الحيز على نفسه ، يتألم إذا ألمح الأسى فى عيون الفقراء ، فكان
يجذل لهم العطاء دون انتظار شئ ، وكان يحب مجالة العامة ، رغم تهافت
حكام فلورنسا وميلانو وروما وسائر أنحاء إيطاليا على الاستئثار به لكى
يبذل لهم ، ويشيد لهم من وحي خياله القصور والتحف المعمارية .

وقد ظل دافنشى العبقري الذى وهب نفسه لفنه فقط يتنقل بين المدن
بإيطاليا حتى رحل إلى فرنسا ، بعد أن عرض عليه ملكها فرانسوا الأول أن
يرافقه ، وخصص له قصر يقيم فيه هو وتلاميذه من محبى الفن ، وراتبا قدره
٣٥ ألف فرنك ، وكان وقتذاك ثروة هائلة .

ولكن دافنشى لم يعمل طويلا ، فقد أصيبت يده اليمنى بالشلل ،
وبعد فترة وجيزة توفى ودفن فى مقبرة مؤقتة فى الثالث من مايو عام ١٥١٩ ،
ثم نُقل بعد ذلك إلى « دير سان فيونتينو » تاركا للعالم عدداً لا يُحصى
من التحف المعمارية ، واللوحات الفنية ، وتراث نادر فى علوم شتى تجعله
من الخالدين .





بيرم التونسي
ماساة تنتهي بماساة !

حياة هذا الرجل تبدأ بمأساة يمتزج فيها البؤس والشقاء ، وتنتهى أيضا بمأساة ، لا تقل ألما وعلذابا عن مثيلتها في حياته الأولى ، وفيما بين البداية والنهاية قصة كفاح عظيمة بطلها هذا الشاعر ، الذى قرر أن يحمل هموم الناس ، ومعاناتهم على كتفيه ليسير بهم فى بحور شعره ، ويفجر من خلالهم قضايا خطيرة لم تكن سوى قتابل ملغومة ، لا يجرا الكثيرون على الاقتراب منها / كما كان نبضا صادقا لرجل الشارع العادى ، ومتحدثا باسم الفقراء ، والغلبة ، ونصيرا للكادحين المهضومة حقوقهم فى مجتمع لا يعترف القائمون عليه إلا بسلطان الجاه ، والمنصب والمال .

هذا هو بيرم التونسي الذى بلغت قوة تأثيره فى الناس وعظمة مواقفه وموضوعاته التى عبر عنها من خلال أشعاره العامة وأزجاله للدرجة التى جعلت أمير الشعراء أحمد شوقى يقول مشيدا بمكانة صاحبا : « إنى أخشى على الفصحى من بيرم » .

وتكمن عظمة هذا العملاق الراحل فى تعبيره الصادق عن الشخصية المصرية فى مطلع هذا القرن ، تلك الفترة الصاخبة بالأحداث المتلاحقة ، والتقلبات السياسية ، والاقتصادية الموجهة للسواد الأعظم من أبناء النيل .

وتكمن عظمة هذه القمة الأدبية الشاخنة ، الذى استحق عن جدارة لقب « فنان الشعب » فى أنه لم يكن يتكسب من شعره على حساب مبادئه أو أخلاقياته ، فبيرم التونسي أبى إلا أن يكون فنه مرآة تعكس نبض المصرى الأصيل ، الذى ينام جوعا على أن يبيع كرامته ، ويتحرر من التزامه بقضايا بنى وطنه .

ولم يكن بيرم التونسي مجرد شاعر يستخدم الكلمة ، وإنما كان مقاتلا
سلاحه الكلمة ، ولم تكن كلماته سوى رصاصات يصوبها نحو المتاجرين
بقوت الشعب ، المغتصبين حقه الطبيعي في أن يحيا مستقلا حرا ، يقرر
مصيره بنفسه ، ولعل هذا هو الذى وضعه في طليعة زعماء النضال ضد
الاستعمار وعملائه ؛ الأمر الذى جعله يتجرع شتى ألوان العذاب والقهر .

ولعل مواقف بيرم الجريئة والصريحة هى التى قلبت عليه أناس كثيرين
من يرفضون نهضة الشعب وثورته ضد قوى الظلم والعدوان ، أو سعى أبناء
النيل لانتزاع أبسط حقوقهم المشروعة في العيش في حرية وعزة وكرامة .

ومن هذه المواقف تلك المعركة الشهيرة التى خاضها بيرم بشعره من
أجل سعد زغلول زعيم الأمة ، أما طرف المعركة فقد كان مفتى الديار
المصرية في تلك الحقبة الشيخ محمد بخيت ، الذى عارض علانية سفر سعد
إلى باريس لعرض القضية المصرية والمطالبة بحقوق الأمة المنهوبة ، وما أن
كتب بيرم أبياته مهاجما الشيخ بخيت حتى قامت الدنيا ولم تقعد ، خاصة
بعد ما أصبحت كلمات بيرم على كل لسان ؛ بل إن جموع الشعب خرجت
ترددها أثناء المظاهرات في شوارع المحروسة .

ولننظر سويا ماذا قال صاحبنا في الشيخ بخيت الذى خرج عن إجماع
الأمة وأثر أن يكون له موقف آخر يتماشى مع الإنجليز والقصر :

أول ما نبدى نصلى على النبى

نبى وطنى يلعن أبوك يا بخيت

تانى كلامى وفد مصر بلادنا

ولع شموعه والتقى الكبريت

تلاتين سنة يا مصر واحنا فى ظلمة
لنا حدايتنا ربت الكتاكيت
راحم رجال الوفد وادى فرنسا
أم الأدب والحفظ والتكيت
وقد كان غضب المفتى شديداً للدرجة التى أصدر فيها بياناً شديد
اللهجة يتهم فيه بيرم التونسي بالكفر والإلحاد !
ويرد بيرم يهجو الشيخ بكلمات لا ينطق بها سوى شاعرنا المشاغب ،
والجرى ، انظر إليه يقول :
يا بخيت يابو دومة يابو خلقة مشؤومة
لاديك بالشؤومة إذا كنتش ترجع
ضبك متيل عالقصر محول
تجرى وتتشنبدل وعامل واد مجدع
إتلم أحسن لك دا الشعب قاعد لك
بالصرمة يـذلك إنمل واسمع
ثم يقلب بيرم المعركة إلى مزاح وفكاهة مستغلا خفة ظله فيخاطب
الشيخ :
يا شيخ بخيت كلام فى شرك
حايعلقو لك فانوس فى زرك
ويهاجم بيرم بقسوة رؤساء الوزراء السابقين الذين أخفقوا فى التفاوض
مع الإنجليز للجلء عن القنال ، واكتفوا بإقامة المهرجانات ، وتوزيع
الوظائف والترقيات على بطانتهم ومحاسبيهم ، انظر إليه كيف يقول :

أربع وزارات يحبروا فيكى يا مفاوضات
الأولة حيرت ماهر وماهر مات
والثانية محمود أهو راجع لها بالذات
والثالثة صدقى الى هو صاحب الكفاءات
لكن داوننج ستريت واقف بكل ثبات^(١)
يقول لنا مسألتكم مسألة باشوات
نحكم ونفرح ونتمخطر في مهرجانات
وموظفين تنتش وتنط عالدرجات
وكلهم عندنا خدام في الشركات
السدرشين والقنسال والملح والفوسفات
وقد كان بيرم التونسى مصلحا اجتماعيا من الطراز الأول ، ولم يصلح
معه الطرد والاستبعاد والنفى خارج البلاد من أن يصرخ بأعلى صوته مطالبا
بمقاومة الفقر والجهل والمرض والقضاء على جميع الظواهر السلبية في حياة
الوطن والمواطنين البسطاء .

ولنرى كيف قاوم بيرم ظاهرة اللصوصية ، والنشل والتسول وكيف قام
بإحياء مشروع كان قد أقمره محمد على بترحيل اللصوص والفتوات إلى
الأراضى البور لاستصلاحها بدلا من أن يعيشوا فى الأرض فسادا .

لم اللصوص والنشالين والشحاتين وحطهم
فى أرض بور تصبح إذا ما أصلحوها ملكهم
الأرض جابت والعباد اتخلصوا من شرهم
وهم ذاتهم أصبحوا أعيان وأشيا فلى
الفاخرة لمحمد على

(١) اسم الشارع الذى يقع فيه مقر رئاسة الحكومة البريطانية .

هنا اللصوص مشات ألوف وأرضنا بور كلها
شيل من هنا وإحذف هنا وكل أرض وأهلها
حسبة بسيطة هينة مش عايزه لجنة تحلها
وتقول يا لجنة تعدلى وتقول يا لجنة اتشكلى
الفاتحة لمحمد على

تهذيب سجون تطبيق قانون دا كل دا رايح عبس
الاص حاسب حسبته وعنده أحسن يتحبس
فى كل خمسين مرة سرقة واحدة فيها ينكبس
ومن جديد يرجع وجيبه من جيوبنا يتملى
الفاتحة لمحمد على

ما انشاش فى يوم رحت أشتري لأعز أحبابى كفن
مات الفقير فى يوم عسير وجارى سلفنى الثمن
شال الى هو المحفظة وزاد على حزننى شجن
وبات على ورقة حشيش مع الحبايب مختلى
الفاتحة لمحمد على

وهكذا كان بيرم منذ أن خرج إلى الناس شاعرا ، ويكفى أن أول قصيدة
نُشرت له وكانت تنتقد المجلس البلدى فى مدينته الإسكندرية - مسقط
رأسه - أثارت ثورة عارمة عليه ، رغم أنها صادفت هوى لدى الناس ،
وبيعت خمسين ألف نسخة الأمر الذى جعله فى نهاية الأمر أن يترك عمله ،
ويصدر مجلة باسم « المسلة » وكان يجارب من خلالها الاستعمار والفقير
والأحزاب المهادنة والذمم الخربة ، والضماير المنحرفة .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ أصر بيرم على التوجه إلى القاهرة ليعايش هذه الملحمة الشعبية عن كثب ، وأخذ يهاجم الإنجليز ، ورجال القصر والعملاء ، ورجال الدين المنحرفين حتى هاجم الملك فؤاد بعنف فاجتمعت أسباب كثيرة لنفيه خارج البلاد من خلال الإنجليز الذين اقنعوا المسؤولين بالقنصلية الفرنسية بترحيله فورا إلى تونس .

وهناك قصة غريبة سبقت نفى بيرم التونسي ، فقد أصدر بيرم العدد ١٣ من صحيفته « المسلة » وكأنها صفعة قوية على وجه الملك ، خاصة عندما كتب قصيدة تحت عنوان « البامية الملوكة .. والقرع السلطاني » وكانت عبارة عن إسقاط يريد به بيرم فضح خبايا القصر ومن بينها مولد وريث العرش بعد أربعة شهور فقط ، تقول هذه القصيدة :

البامية في البستان تهز القرون
وجنبها القرع المملوكى اللطيف
والديدبان داير يلم الزبون
صهين وقدم وامثل يا خفيف
مرمر يا زمان مرممر
البت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زرعة في الديوان قرع أخضر

ويمضى بيرم في قصيدته ليهاجم بدرجة أعنف وأقوى فيقول :

السوزة من قبل الفرع مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة قلت
سكتوا وخلوا البنات تستر
مرمر يا زمان مرممر

وعندما غادر بيرم الإسكندرية مجبرا إلى تونس ، وعمره لا يتجاوز السابعة والعشرين كانت زوجته حاملًا ، وأكبر أولاده من زوجته المتوفاة عمره سبع سنوات ، وهناك هاجم الاحتلال وسار على نفس النهج ، وبدأت السلطات تحاصره فاتجه إلى باريس حيث يفشل في الحصول على عمل هناك ، وذهب إلى مدينة ليون ليعمل في مصنع للحديد والصلب ، ويتعرض لحادث سقوط كتلة معدنية على ساقه ليترك المكان ، ومعه شهادة حسن سير وسلوك مكنته من العمل في أماكن أخرى بفرنسا .

وقد انفعّل بيرم بالتقدم والمدنية في أوروبا ، وأخذ يطالب رفاقه في الشرق بالنهضة والصحوّة وكتب يقارن بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا ومثيلاتها في العالم الغربي حتى أدق الأشياء وأبسط مظاهر الحياة ، وصفها هنا وهناك ، وعقد مقارنة بينهما فيقول مثلا :

هاتجن يا ريت يا خوانا ما رحتش لندن ولا باريس
دى بلاد تمدين ونضافة وذوق ولطافة وحاجة تغيز
ما لقتش جدع متعافى وحافى وماشى يقشر خص
ولا شاب مشمرخ أفندى معاه عود خلفه ونازل مص
ولا لب أسمر وسودانى وحمص وانزل يا تقزقيز
حاتجن يا ريت يا خوانا ما رحتش لندن ولا باريس

وعندم عاد بيرم في عام ١٩٣٨ متسللا إلى مصر بعد عشرين سنة بالمنفى أخذ يتحدث بلسان الفقراء والغلبة والبسطاء الكادحين ليل نهار دون جدوى ، حيث تتردى أحوالهم وتسوء يوما بعد يوم بينما يتاجر الآخرون بقوتهم ، فيقول على لسان العامل المصرى مثلا .

ليسه أمشى حفيان	وأنا منبت مراكيكم
ليسه فرشى عريان	وأنا منجد مراتبكم
ليسه بيتى خربان	وأنا نجار دواليكم

هى كـده قسمتى ؟

الله يحاسبكم

ساكنين علالى العتب	وأنا الى بانيتها
فارشين مفارش قصب	ناسج حواشيتها
قانيين سواقى دهب	وأنا الى أدور فيها

يارب ما هوش حسد

لكن بعـاتبكم !!

من الصبحاح للمسا	والمطرقة فىدى
صابر على دى الأسا	حتى نهار عيـدى
ابن السبيل انكسى	واسحب هرايـدى

تتعـروا من مشيتى

وأخجل أخـاطبكم

ليه تهدمونى وأنا الى	عزكم بـانى
أنا الى فوق جسمكم	قطنى وكتـانى
أهلى نهار دفتـى	مالقيتش أكفـانى

حتى الأسية وأنا راحل

وسـاييكم

وحارب بيرم بقصائده النارية الإقطاع والامتيازات الأجنبية ، واستبداد العائلة المالكة والاحتلال الإنجليزي ولكن عظمة بيرم تكمن في أنه لم يكن مصلحا سلبيا يطالب الآخرين برفع الظلم عن كاهل العرب بوجه عام والمصريين الذين يحيا بينهم على وجه الخصوص ، وإنما كان يعنف العرب ويزجرهم ، ويعاتبهم ليستنفز قواهم الكامنة ، ويستنهض همهم المقعدة ، ويشعل فيهم نيران الثورة على أوضاعهم المزرية ، وبطبيعة الحال لم تكن قصائده تخلوا من التهكم والسخرية ، وخفة الظل التي تغلف كل أعماله الخالدة .

فقد كتب بيرم على سبيل المثال ينعى فيه على العرب خولهم وتقاعسهم قائلا :

يا مصرى وأنت اللى هـا مـنى من دون الكل
هـزـيل ويحسبك الجاهل عيان بالسل
من دى الكيـوف اللى تصبر على كثر الـذل
ونمت والعالم فايق قوم بص وطل
شوف الشعوب واتغص ودوب وارجع إنسان

ولم يكن بيرم شاعرا محليا ، أو مصرياً ، أو تونسيا فقط ، وإنما كان شاعرا قوميا التحم بقضايا أمته العربية فتناول حرب المغاربة ضد الأسبان وكتب عن زعيمهم عبد الكريم الخطايب .

وكما كان بيرم قوميا كان عالميا يتحدث بلسان الإنسانية جمعاء ، كتب عن الزعيم الهندي غاندى ، وهاجم حرق أمريكا للقمح ، وهناك شعوب تتضور جوعا ، وتغزل في رشاقة اليابانيين .

وكتب بيرم روايات عدة فكتب شهر زاد ، ليلة من ألف ليلة ، وعقلية
وبعد عودة بيرم لمصر ، أخذت أشعاره تترجم في قالب غنائي رائع .

وقد جمعت بيرم « فنان الشعب » علاقات خاصة بأشهر مطربين
ومطربات العصر ، فقد كانت علاقته بأم كلثوم في غاية الظرف ، كان يص
على مناداتها بأسماء الدلع ، وكانت هي تموت في مداعبته فكانت تستقبها
بعبارات فكاهية ومزاح غير عادى .

وقد كتب بيرم لكوكب الشرق منها « كل الأحبة » ، « أهل الهوة
يا ليل » ، « شمس الأصيل » ، و « الأولية في الغرام » ، « أنا في انتظارك »
و « القلب يعشق كل جميل » ، « فرحة هنية » .

وهكذا كتب بيرم أكثر من ٣٢ أغنية لأم كلثوم فكانت بحق عام
رئيسيا في توهج كوكب الشرق وارتفاع أسهمه ، وتربعت هذه العملاقة ع
قمة الهرم الغنائى فى العالم .

وقد التقى أيضا بيرم بسيد درويش وكتب له آخر أوبريت « شهر زاد »
ورغم أن الأوبريت مقتبس عن قصة الأميرة التتية الجميلة « شهر زاد
إلا أن بيرم حوله إلى رواية تفيض بمعانى المقاومة ، والكفاح وحب مصر .

وقد خاض الشاعر العظيم معركة أخرى ضد المرأة الشرقية المستسلمة
والتي لا تعرف شيئا خارج حدود المطبخ والبيت وهاجم عاداتها المتخلفة
يقول :

ما تمدغيش للعيال الأكل بأسنانك
والنفخ فى الأكل سم فعــــرض ايمانك
إخيه عليكى بقيتى خصلتك ســــودة

ما تسمعيش الكلام تشكى في لسانك
ما تحسبش من عما يلك ربنا يحبك
بطن الولد توجعه والأكل يتليك
بعدين يخستك قوى ويموت بالعربى
قلت اللى فيها بقا وذنك على جنبك

وهكذا كان بيرم عملاقا عظيما في شعره ، وفي مواقفه الوطنية ، وفي
دعواته الإصلاحية ، ومطالبته بالتححرر من التبعية ، والتخلف ، والثورة على
الاستعمار والإقطاع والامتيازات وغيرها من مظاهر الحياة السلبية في مطلع
القرن .

وهكذا ظل بيرم حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في الخامس من يناير عام
١٩٦١ خلفا وراءه تراث شعرى خالد ، وملحمة نسج خيوطها رجل عظيم .
وإذا كان هذا هو بيرم الشعب ، بيرم الثورة ، بيرم السياسى ، والمصلح ،
والمقاتل بالكلمة ، فقد كانت حياته وخاصة طفولته ، وصباه ، وصدر شبابه
ملحمة أو بطولة مطلقة بمعنى الكلمة ، وتعالوا بنا نتعرف عن قرب على
الشقاء ، والعذاب ، والإرادة والتحدى في قصة نجاح فنان الشعب .

ولد محمود بيرم التونسي بحى السيالة أحد الأحياء الشعبية الفقيرة
بالإسكندرية في ٢٣ مارس عام ١٨٩٣ في أسرة أقل من متوسطة بكثير . كان
أبوه يعمل بدكان صغير لم يكن يدر الكثير ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يبعث
بالصغير بيرم إلى كتّاب الشيخ جاد الله ، ولكن قسوة الشيخ وتجبره على
صاحب السنوات الأربع من عمره جعل صاحبنا يكره الكتاب خاصة وأن
الشيخ كان حاد المزاج سريع الغضب ينهال على صغاره بالكلمات
والصفعات حتى لآتفه الأسباب .

ويحاول بيرم إقناع الأب بإخراجه من الكُتَّاب ، فيتلق عقابا أشد من عقاب الشيخ ، ويذهب بيرم إلى الشيخ دون فائدة ودون أن يتعلم شيئا ، وفي النهاية يسحب الأب الابن ويضعه في المكان الذي يمتلكه .

وعقب خروج بيرم من الكُتَّاب ، وكان في السابعة ، كشرت الحياة له عن أنيابها ، وخرجت إليه كما يعرفها الكبار ، معقدة ، مؤلمة ، ومضجعة .
فقد شهد بعينه موت شقيقته التي كانت تتفتح لتوها للحياة ، وانهارت حياة الأسرة الآمنة .

فقد اكتشفت أم بيرم أن أبيه تزوج في السر من راقصة كانت تتردد عليه في دكانه ، وأنه استأجر شقة لها في حي الأزاريطه رغم علمه بسوء سمعتها في الحي .

وأخذت الأم تجلس إلى الصغير في المساء لتحديثه عن أصل جدوده التوانسة ، وعن أبيه المزواج الذي تعدى زوجته الثانية ، والفنانة رقم ٣ في القائمة .

وعرف بيرم الصغير أن جده لأبيه كان قد رحل من تونس إلى الإسكندرية بعد أن رفضت عائلته لأبيه الاعتراف بانتسابه إليها لحرمانه من مشاركتهم الميراث .

وبدأ الحزن يتسلل إلى قلب بيرم ، فانتحى جانبا وعزف عن مشاركة رفاق الطفولة ألعابهم المسلية ، ويحاول والده استئناف عملية تعليمه ، فيبعث به إلى مسجد المرسى أبو العباس حيث كان هناك معهد ديني .

ورغم أن بيرم بدأ يحب الدراسة ، ويرتبط بالمعهد ويحاول استعادة ما فاتته ، إلا أن القدر كان له بالمرصاد ، فقد مات أبوه وهو نائم في بيت الراقصة .

وأخذت تسرى فى الحى شائعات حول أن الأب لقى مصرعه بسبب سم بطىء دسته له الراقصة لتستولى على ثروته التى كان يحتفظ بها حول خصره فى حزام به مبالغ كبيرة .

ورحل الأب ووجدت الأم نفسها عاجزة حتى عن إيجاد رغيف خبز للصغير بيرم وشقيقته من زوجة أبيه الأولى التى كانت تعيش معهم بعد وفاة أمها .

ومما زاد الطين بلة ، هو استيلاء أولاد عم الأب الميت على الدكان ، وأمام وطأة الفقر ، وحرارة الحاجة انقطع بيرم عن الدراسة وذهب يعمل صيبا بدكان بقالة حتى يجد لأمه ولأخته ولنفسه ما يسدوا به رمقهم ، ويستريح أمام الناس ، ولأن بيرم الذى لم يكن قد تجاوز عامه الثانى عشر كان شغوفاً بالغناء الشعبى والمواويل فقد ترك ذات يوم الدكان ليذهب إلى مولد « المرسى أبو العباس » ليُطرد من عمله ، وقال صاحب الدكان لخال بيرم : هذا الولد لا يصلح إلا للعمل فى تياترو » .

وقد حدث أن تعرف بيرم على أحد البنائين من أصدقاء خاله ، وكان يحكى له القصص الشعبى ، والحكايات الفلكلورية حتى بدأ بيرم يعشق هذه الحواديت ، وأخذ يقتصد من مصروفه أو أجره يومية ليشتري كتب الأساطير الشعبى مثل « ألف ليلة وليلة » و « أبو زيد الهلالي » و « عنتره » وغيرها .

ولم يكن بيرم يتحرر قليلا من آلامه وأحزانه لرحيل والده ، حتى رحلت أمه إلى بيت رجل آخر تزوجته وكان قريبا لها ، واصطحب زوج الأم بيرم ليساعده فى صنع هودج الجمال الذى كان متخصصا فى صنعها ؛ ولكن بيرم كان يموت كل يوم من كم وعبء الأثقال التى كان يحملها ويقول : إن هذه

المحنة خلقت له عضلات وأكتافا جعلته قادرا على العمل الشاق والحياة الصعبة عندما نفى خارج الوطن .

وبقى بيرم على هذا النحو حتى ماتت أمه متأثرة بخُرَّاج بصدرها ، وهكذا وجد الصبي نفسه وحيدا في عام ١٩١٠ ، وشعر بالضيق ؛ ولكنه استجمع قواه الصغيرة ، والتحق بدكان أبيه وكان عليه خلافات بعد استيلاء أقارب الأب عليه ، واضطروه هو وأخته التوقيع على بيع انصبتها بملايم .

وبهذه النقود القليلة اشترك بيرم مع أحد الصيادين في دكان بقالة ، ومن خلال الكتب التي كان يقطعها للبيع في ورقها تعرف على ابن عربي من خلال كتاباته الصوفية فأخذ يبحث عن أعماله وأعمال غيره كالمقرىزى .

وبدأ بيرم يهتم بقضية الوطن ، ورفض أن يقف موقفا سلبيا من الحركة الوطنية .

وبوسط هذه الحياة المتلاطمة الأمواج أخذ قلب بيرم يضطرب ، وأخذت نفسه تتأرجح بين حياة الضياع والرغبة في الاستقرار ، ومن هنا بدأت فكرة الزواج تراوده .

وبسبب الزواج والاهتمام الجارف بالقراءة ، أفلس الدكان بسبب عدم دفع الزبائن من أرباب الشكك (البيع بالأجل) للمستحق عليهم .

ويبيع بيرم بيت أمه المتواضع ليتاجر بثمنه القليل في صفائح السمينة .

وما أن اتجه بيرم لإصدار الصحف والشعر والرواية والأغاني حتى انتقل إلى حياة أخرى ؛ ولكن لم تنقطع فيها صلته برجل الشارع بل كانت كل حياته وسط العامة يتفاد معهم ، يعلمهم ، ويتعلم منهم ، يقاتل معهم ، ويدافع عنهم .

وينجب بيرم بعد ست سنوات زواج ولدا أسماه « محمد » ، وبتنا أسماها « نعيمة » وذات يوم فقد بيرم زوجته التى لقيت مصرعها متأثرة بمرض التيفوس .

وتزوج بيرم مرة أخرى ليجد من يرعى الطفلين ولكن الزوجة الجديدة تنبرم منهما ، وتعامل معهما بقسوة فبعث بهما إلى حماته . ويعود بيرم من منفاه ليجد امرأته تزوجت من غيره بعد أن حصلت على حكم بالطلاق منه .

ويعمل بيرم بعدة صحف كجريدة « الزمان » و « أخبار اليوم » ويصدر كتبه الواحد تلو الآخر حاملا كل الصور الساخرة فى مجتمعنا بطريقة تجعله أقرب إلى الجراح الماهر الذى يمسك بالمشرط ليقدم من خلال الميكروسكوب (قلمه) شرائح دقيقة تحمل كل ما يجرى فيه ، وما يحيط به من سلبات وعيوب .

ويعود بيرم إلى زوجته السابقة بعد طلاقها من الرجل الذى كانت قد تركته من أجله إبان وجوده فى منفاه وأنجب منها ، ولدين ، وبعد ما يتسلم بيرم جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٦٠ تقديرا لكفاحه فى مجال الأدب والفن تشتد عليه وطأة مرض الربو الذى كانت أعراضه قد ظهرت عليه فى أوائل عام ١٩٥٤ .

وفى عام ١٩٦١ يرحل بيرم العظيم متأثرا بمرضه الذى لم تفلح معه جميع محاولات الأطباء ، ليسدل الستار على حياة عملاق عظيم ترك تراثا خالدا ، وقبىا فنية شائخة ؛ رغم أنه لم يكن قد بدأ حياته إلا من تحت الصفر !!





وليام شكسبير

عبقريّة تجاوزت حدد الزمان والمكان !

لا يذكر التاريخ أن أدبا ذاع صيته ، وبلغت شهرته الآفاق ، وكان
مشارا لحديث الناس في شتى أنحاء المعمورة ، كما كان عليه الحال مع هذا
العبقري القلبي . ولا يمكن أبدا أن يذكر مؤرخو الأدب العالمي العصر الذي
عاش فيه إلا ويضيفون إليه اسمه حتى يميزوه عما سواه من عصور .

وقد بلغت عظمة هذا العملاق المبدع أوجها إلى الدرجة التي أصبح
فيها شعب كالشعب الهندي مثلا يقبل على أعماله بشغف ، ويرتبط بإنتاجه
الرائع بنفس القدر الذي نجده لدى الشعب الإنجليزي الذي ينتمى إليه .

هذا هو وليام شكسبير أعظم أدباء العالم وأكثرهم خلودا على مر التاريخ
الإنساني كله ؛ وقد طغت شهرة هذا الرجل حتى على جميع الملوك
والسلاطين والأباطرة الذين صالوا وجالوا ، وقطعوا الأرض شرقا وغربا ..
شمالا وجنوبا .

وإذا ما قمنا باستثناء الرسل والأنبياء من أصحاب الأديان الكبرى .
فليس في أصحاب الأقلام منذ كتب الإنسان بالقلم من يضاهي شكسبير
عبقرية أو عظمة .

كان شكسبير شاعرا مسرحيا فذا ، ومثلا ومؤلفا ، ولم يجد التاريخ بمثله ،
رغم نشأته المتواضعة وبيئته الفقيرة ، وقسوة ظروف حياته ، التي كان يمكنها
أن تسقط أي إنسان عن ظهر الحياة ، وتلقى به بعيدا عن دائرة الضوء !

وقدم شكسبير للإنسانية مسرحا ليس له مثيل ، فقد كان أعظم من
يقدم أفكارا خالدة تعبر عن النفس البشرية في شموخها وسقوطها ، وفي

سموها ، وفي انحطاطها حثيا أننا عندما نراها اليوم بعد خمسة قرون من الزمان نشعر أن الرجل يحيا بيننا ، ويستمد أفكاره من همومنا ومشكلاتنا !

ترك العملاق الخلاق تراثا إنسانيا رائعاً قوامه ثمانية وثلاثين مسرحية وأكثر من ١٥٤ قصيدة لطالما كان الناس يقتبسون منها جملا مأثورة ، وأقوالا حكيمة ، يستعينون بها عندما يرغبون تلخيصا لموقف إنسانى أو سلوك بشرى ، أو غريزة فطرية ، أو خصلة مكتسبة من البيئة والظروف المحيطة .

ورغم من أن شكسبير كان يكتب بالإنجليزية فأعماله موجودة في كل لغات العالم ، وظهرت على كل المسارح دون استثناء . ورغم رحيل هذا الأديب الكبير منذ أكثر من ٤٠٠ سنة إلا أن دارسى المسرح وباحثيه لا يزالون يكتشفون كنوز عظمته ، كما أن الشعوب لا تزال تقبل بنهم على روائعه الخالدة .

وقد ولد شكسبير في عام ألف وخمسمائة وأربعة وستين في أسرة ريفية بسيطة ، لم تهتم جيدا بتعليمه في طفولته اللهم إلا مدرسة متواضعة زجوا به فيها لتعلم القراءة والكتابة . وظل شكسبير يدرس فيها حتى حلت ضائقة مالية بأبيه تركها على أثرها وأخذ يعمل مع أبيه حتى بلغ الثامنة عشرة فزوجه بـ « آن » التى كانت تكبره بشانئ سنوات لينجب منها « سوسن » ، وتوأمين هما ذكر وأنثى هما هامت وجوديث .

وبعد أن إتسعت مسئوليات شكسبير ، وتعاضمت متطلباته ، أصبح لزاما عليه أن يبحث عن مورد للرزق غير ما يتقاضاه من عمله مع أبيه الذى صار قليلا مضطربا لا يستقر ولا يثبت على حال .

ولما كان شكسبير قد وجد في نفسه قدرة على التأليف والتمثيل المسرحي ، ظلت معه منذ الطفولة ونمت وكبرت أثناء عمله المتواضع مع أبيه ، فقد قرر أن يتجه وجهة أخرى ، ويغير مجرى حياته .

شد شكسبير الرحال إلى لندن ، وأخذ يقدم نفسه كممثل أولاً ، وبعد عشر وفشل متكرر أسندت إليه عدة أدوار صغيرة حتى عمل في أكبر الفرق المسرحية في بلاده ، وهي فرقة « الإيرل أوف لسيستر » التي أباحت الملكة « إليا صابات » إقامة المسارح في العاصمة من أجلها .

ومن هنا بدأ شكسبير رحلة مع المجد ؛ فقد ظهرت عبقريته واضحة ، جلية ، فألف أعماله المسرحية الخالدة مثل « حلم منتصف ليلة صيف » ، « هاملت » ، « عطيل » ، « ماكبث » ، « الملك لير » ، « تاجر البندقية » ، « هنري الرابع » ، « روميو وجوليت » ، « يوليوس قيصر » ، « أنطونيو وكليوباترا » ، « العاصفة » ، « هنري الخامس » ، « كما تحب » ، « زوجات نندسور » ، « هنري الثامن » ، « ترويض النمرة » ، « الليلة الثانية عشرة » وغيرها من رائعات المسرح المجيدة .

هذا هو شكسبير أعظم رجال المسرح والأدب في التاريخ الذي كانت عظمته وعبقريته واضحة في القيام بعملية خلق فنى للطبيعة الإنسانية وليس مجرد تصوير لها أو تعبير عنها .

فقد كان خلق الشخصية في عالم الفن هو رسالة شكسبير .. خلق الشخصية .. شخصية الإنسان في طبيعته المتنوعة المتقبلة حيثما كان وكيفما كان .. مثات الرجال والنساء والأطفال في كل سن ، ومن كل مزاج ، وعلى أية حالة ، في كل طبقة تجمعهم مسرحيات شكسبير .

فقد كانت تضم الطيب و الخبيث ، الصريح والغامض ، السعيد
والحزين ، الطامع والقانع ، العظيم والحقير . لقد كانت عظمة شكسبير
تكمُن في كون مسرحياته لا تنقضي مع نزول الستار ، وإنما تبقى طويلا لمئات
السنين نلتقى بها ، ننفعل معها ، وتستمتع بها كما لو كانت جديدة ، تعرض
لتوها !!

□○□○□



الإمام محمد عبده

زعيم الإصلاح الفكري والديني

كان يمكن أن ينتهي مصير الغلام الصغير كما آل إليه مصير بقية أخوته ، وكان يمكن أن يفقد الفكر العربي أحد زعماء الإصلاح ، وقادة التنوير العظام الذين لا يزالوا يمثلون نبعا لا ينضب معينه - فعلا - كان يمكن أن نفقد ثروة بشرية هائلة لولا أن شعر الأب الذي هزمه الفقر ، أن ابنه لديه ما يبعث على الاعتقاد بأن حرمانه من العلم جريمة في حق هذا العالم .

فقد وجد الأب أنه حتى بالنسبة لأب مثله يقاسى ويلاط العوز والحاجة ، في عصر لا يرحم الفقراء ، والضعفاء ، لا ينبغي تجاهل ذكاء غلام كهذا ، يشهد كل من يراه بأنه سيكون نابغة عصره .

وبعد تفكير عميق ، اهتدى الأب إلى قرار لم يتخذه من قبل ؛ بل لم يحاول التفكير فيه . لابد أن يضحي بكل شيء ، ويتحمل كل الصعاب حتى ينتزع الصغير البري من براثن الجهل ، ويضئ جنبات حياته بنور العلم !

هكذا كانت البداية الحقيقية المبكرة للإمام محمد عبده الذي يعد من أكبر المفكرين والمصلحين في تاريخنا العربي والإسلامي كله ، ذلك الشيخ الجليل الذي لعب دور القائد الملهم ، والعالم البصير ، والمثقف المستنير .

فقد وُلِدَ محمد عبده لأب فلاح بالكاد يجد قوت يومه . هذا الفلاح لم يجد مقرا من أن يدفع بجميع أبنائه إلى الأرض يزرعون ويحراثون . إنه لم يفكر حتى في تعليمهم ، فقد كانت إمكانياته لا تُذكر ، بل كان أحيانا يضطر إلى الاستدانة لكي يجد ما يسد به رمق أسرته الكبيرة .

وعندما رزقه الله بابنه محمد في عام ١٨٤٥ حلت البركة بالبيت وش
الجميع بأن هناك شيئاً ما تغير في المنزل ، لقد كان قدوم الصغير «وش الخ
مبعثاً للسعادة وعمت البيت الفرحة ، وأحست الأسرة بأن الله قدم إليه
هدية عظيمة .

ومنذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها محمد عبده يشب عن الطوق ، بدأ
معالم نبوغه تظهر ، وأخذ ذكاؤه الحاد يظهر بجلاء ، أما ميله للتعليم فقد
فطرياً ، ولا يقف عنه أى حد .

ويبدو أن الفلاح المصرى الأصيل قد أدرك بفطرته أن ابنه يعد بالكثير
فقرر أن يدفعه إلى الطريق الذى يظهر فيه مواهبه ، فدفع به إلى كُتّاب قر
« محلة نصر » بمحافظة الغربية حتى يُعَدُّ لما هو أكبر بكثير . وحفظ الغا
القرآن على يد الشيخ ولكن كان هذا هو كل ما يمكن الحصول عليه ،
الشيخ .

وقد حاول الغلام أن يستوعب دروس شيخه الفقهية المتواضعة
الكتاب ، ولما وجد الأب أن قدرات ابنه - كما يبلغه بذلك بعض المشايخ
أكبر بعث به إلى الجامع الأحمدي بطنطا يمضى هناك ثلاث سنوات ، ثم نة
بعد ذلك إلى الجامع الأزهر .

وبين أحضان الأزهر تفتحت مدارك الصغير وأخذ العلم يهز وجدان
ويزلزل كل كيانه ولكن طريقة التعليم هناك لم تكن تُعجب الغلام ، فقض
عامين لم يستفد منهما الكثير على أيدي معلميه من الشيوخ ، ولكنه أدر
قيمة العلم وقرر البحث عن مخرج من هذا المأزق .

وما أن فكر محمد عبده ملياً في مشكلته حتى وجد أنه ليس هناك مفر من تلقى العلم بنفسه ولنفسه فابتدع أسلوباً في المطالعة والتحصيل ، وأخذ يستلذ بها يقرأه ، فاستعذب العلم ، فمضى يجمع منه كل ما تصل يده إليه ، وهكذا بلغ محمد عبده مدى طويلاً في ارتشافه من بحر العلوم ، وأحرز منها جانباً كبيراً كان ذخيره وعدته فيما بعد ، وقد تزوج محمد عبده في تلك الفترة وقبل أن يصل العشرين من عمره ، حتى لا يشغل عن تحصيل العلم والدين وقد كان الأب وراء هذا القرار خاصة وأن الله قد منّ عليه ، ووسع من رزقه ، فقال لنفسه : لماذا لا أرى الفتى ما دام مجتهداً ويعد بالكثير ، وبالفعل استقرت نفسية الفتى وواصل اغترافه من العلم .

وقد عمل محمد عبده إلى جانب الأزهر في عدة أعمال كالتدريس والترجمة ، وظل كذلك حتى وفد إلى مصر المفكر العظيم « جمال الدين الأفغانى » فيلسوف الإسلام وتولى هذا الوافد العملاق تدريس المنطقة والفلسفة فانخرط محمد عبده في سلك تلامذته الذين كانوا يضمون نوابغ المصريين .

وقد أظهر محمد عبده أمام الأفغانى قدرات عظيمة ، وأفكاراً إصلاحية رائعة ، وعقلية مرتبة ومنظمة ، وإحساساً وطنياً مرتفعاً ، كما كان محمد عبده أقرب تلاميذ الأفغانى وألصقهم به ، وأكثرهم قدرة على مباراته ، وعندما أبعد الأفغانى من مصر قال يوم وداعه : « قد تركت فيكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالماً » ومن هنا بدأت رحلة جهاد محمد عبده ، وكفاحه ، فأخذ يكتب في الصحف بجرأة وصراحة عظيمة ، وتقلد بعض المناصب العلمية : بين تدريس في المدارس الأميرية وتحرير في صحيفة

الوقائع المصرية ، وكتابة في الدوائر الرسمية حتى قامت ثورة الزعيم أحمد عرابي ضد الخديوى توفيق .

وفي بداية الثورة كان لمحمد عبده الذى اشترك فيها اشتراكا فعليا آراء بناءة فقد قصر بعض مقالاته على الدعوة إلى إصلاح التعليم ، ومنح الفرصة لجموع الشعب ، وطالب عرابي بالتركيز على التربية والتعليم قبل التركيز على الثورة ، وقد بدأ محمد عبده مع ثورة عرابي ثورته الإصلاحية العظيمة التى تركزت حول الدعوة إلى تحرير الفكر الإسلامى والعربى من قيود التقاليد ومنهم الدين على طريق سلف الأمة ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى ، وتمييز الناس وبصفة خاصة المحكومين بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب .. وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

وجهر محمد عبده بدعوته الإصلاحية ، ولم يخش بطش الاستبداد ، الذى كان فى عنفوانه ، وقمة جبروته وظلمه ، كما هاجم مشايخ الأزهر ، وحملهم مسئولية تراجع الدين الحنيف ، وانتشار الأفكار الهدامة ، والمتطرفة التى تباعد عن روح الدين الحنيف ، وكما حمل لواء الإصلاح السياسى حمل لواء الإصلاح الدينى .

وعندما إحتل الإنجليز مصر ، أدركوا أن محمد عبده قائد ثورى ، وليس مجرد مصلح دينى وسياسى ، وعندما أفتى الإمام الشيخ بعزل الخديوى وطرد المحتل الإنجليزى الغاصب من مصر ، ألقى القبض عليه ، وتم نفيه خارج البلاد ، فذهب إلى سوريا ثم إلى باريس ليلتقى من جديد بأستاذه جمال الدين الأفغانى ، وفى باريس ، أنشأ الأفغانى وتلميذه النجيب العلامة والناطقة محمد عبده جريدة « العروة الوثقى » وعهد إلى التلميذ بتحرير الصحيفة الذى كان لسان حال المصلحين والثوريين والمدافع عن الوطن

العربى المحتل ، وحقوق أبنائه وفى باريس أيضا ، اطلع محمد عبده على التمدن والتحدث ، وتعلم الفرنسية وقرأ المزيد عن الفلسفة والقانون .

وما أن عاد محمد عبده إلى مصر بعد صدور العفو عنه ، عهد إليه بتولى القضاء ، فعُيِّن مستشارا فى محكمة الاستئناف ، وعضوا فى مجلس إدارة الأزهر ثم « مفتى عام للديار المصرية » ، وكانت فتواه نارا حارقة ضد الاستعمار والقصر ، وظل بالمنصب حتى لقي ربه فى الحادى عشر من يوليو عام ١٩٠٥ متأثرا بخيبة أمله فى إصلاح الأزهر ، والمقاومة العنيفة التى واجهها من جانب الخديوى والإنجليز والمشايخ غير الشرفاء لدعوته الإصلاحية ، وكتب أبيات شعر قبيل وفاته مباشرة تعبر عن هذا قال فيها :

ولست أبلى أن يُقال محمد
أبلى أم اكتظت عليه المآثم
ولكنه دين أردت إصلاحه
أحاذر أن تقضى عليه العاثم

وهكذا رحل الإمام محمد عبده ابن الفلاح الفقير الذى أصبح زعيما للنهضة الإصلاحية الجميلة التى لا تزهق أرواحا ، ولا ترق دماء ، نهضة مبنية على الفكر ، والهداية ، والاستنارة ، وإصلاح التعليم ، وتنقية الدين من شوائبه التى دخلت عليه ، لقد حاول محمد عبده التوفيق بين الإسلام والمدنية الحاضرة بالتححرر من القيود السخيفة ، والفكر المتخلف ، والتطرف الدينى ، والتعنت الفكرى الذى يصد أبواب الاجتهاد .

□□□□□



توماس أديسون
المتخلف عقليا الذي اضاء لنا الدنيا !!

لم يمض على دخول الصغير توماس المدرسة ثلاثة شهور فقط ، حتى قرر الناظر ، والمدرسون طرده وعدم السماح له ثانية بالدخول ، أما حيثيات مثل هذا الحكم الشديد القسوة ؛ فقد كان على حد تعبير الناظر .. « الطفل بليد ، ومتخلف عقليا » !!

وبعد أن كان أمام الصغير فرصة للتعلم والتسلح بما يواجه به مرارة الحاجة ، وشر السؤال - فيما بعد - عندما يكبر تلاشى الأمل ، وأصبح عليه أن يصارع الحياة في سنه المبكرة ، لا سيما وأن أسرته فقيرة بالكاد تجد قوته يومها .

هكذا كان حال توماس أديسون الفاشل الذى أضياء لنا الدنيا ، ولا يدرى سوى الله ماذا عسانا أن نفعل لو لم يكن لدينا المصباح الكهربى الذى اخترعه من بين ألف اختراع سجلهم باسمه .

ورغم البداية المفجعة التى كان يمكن أن تقضى على الصغير فى مهده ، وتدفعه إلى طى النسيان ، إلا أنه لم يأبه بما حدث ؛ بل إنه لم ينزعج للعقاب الجسمانى والنفسى المؤلم الذى تعرض له من جانب والديه . لقد كان لتوماس رباطة جأش رجل بالغ ، وقلب أسد ، وعقلية عبقرى .

ويبدو أن هناك علاقة متبادلة بين العبقرية والجنون ، هذا هو التفسير الوحيد لقرار فصل هذا العبقرى لاتهامه بالتخلف العقلى . فالعبقرية كالجنون هى خروج عن المألوف ، ولحظة الخلق والإبداع هى لحظة انفصال عن الواقع والتحليق فى عالم خاص له حسابات لا يعرفه إلا يمارس العبقرية والخلق والإبداع .

ويقول أديسون في مذكراته : إنه كان يكره المدرسة لأن المدرسين يلقنون التلاميذ العلوم تلقينا ولا يسمحون لهم حتى برواية المعلومات على طريقتهم .. إنهم يحرمونهم من أبسط حقوقهم المشروعة في إختفاء نوع من الذاتية أو الخصوصية على ما يخرجونه من جعبتهم .

ويقول : إن الشكاوى الكثيرة من عدم تركيزه وانشغاله عما يقوله مدرسه ، كان يقابله دائما .. «علقة ساخنة» في البيت حتى إنه كره المدرسة والبيت معا .

وبعد ما ترك أديسون الدراسة ، عمل بأكثر من مكان ، فتارة هو صبي ميكانيكى ، وتارة لدى نجار ، وما أن شب وكبر ، وبلغ الثانية عشرة حتى بدأ يعمل على خط قطار يربط بين المقاطعات التى تقع شمال وجنوب مدينة ميلانو بولاية أوهايو التى ولد ونما فيها .

وحاول أديسون الاستفادة من مواهبه ، وأخذ يفكر كيف يبتكر ، وكيف يخترع ، وفى القطار كان يصدر صحيفة ويطبعا فيها ، ويتلقى أخباره عند الوقوف بكل محطة ، ثم أنشأ معملا بالقطار ضمن أجهزه ومعدات ومواد كيميائية وذات مرة كاد يتسبب فى حريق هائل بالقطار .

وما أن خطا أديسون عامه الحادى والعشرين حتى ابتدع جهازا كهربائيا لتسجيل الأصوات فى الانتخابات ، ولكن لم يجد إقبالا على شرائه ، وكان فى أمس الحاجة إلى أموال كثيرة حتى يمول اختراعاته التى كانت تتطلب المواد الخام والمعدات ، وغيرها ، ناهيك عن تدبير ما يقيه الجوع والبرد القارس .

ولأن أديسون حاد الذكاء ، متوقد الذهن ، عظيم الفكر ، فقد اهتدى إلى قرار مؤداه أن البداية لابد أن تكون من خلال اختراع شىء لا يجد الناس مفرا من شرائه ، وبمبلغ كبير يؤدى الغرض .

وبالفعل تمكن المخترع الصغير من ابتكار جهاز رائع لصرف تذاكر القطارات ، وباعه في عام ١٨٦٨ بمبلغ خيالى قدره أربعين ألف دولار ، ومن هنا بدأ نجمه يبرز ، ويعرفه العالم كأعظم مخترعى عصره .

وإذا كان جهاز صرف تذاكر القطارات الذى طُبِعَ عليه اسم أديسون قد عرفه إلى العالم كله ، فإن اختراعا آخر جعله أكثر شهرة وثراء ، وهو « الفونوغراف » الذى سجله باسمه في عام ١٨٧٧ .

وما هى سستان حتى هز أديسون العالم كله بأعظم اختراع عرفته البشرية ، والسذى لا تزال جميعا ننعم به ، كما ستنعم به الأجيال التى ستأتى بعدنا .. إنه « المصباح الكهربائى » ، الذى جعله أديسون بنظام توزيع كهربائى اختراعاً يدخل البيوت .

وفي عام ١٨٨٢ ، أسس صاحبنا العبقرى السذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شركة باسمه تولت إنتاج الكهرباء لمدينة نيويورك ، ومنها انتشرت الكهرباء فى أمريكا وباقى أنحاء العالم .

وتزوج أديسون السذى أصبح أغنى وأشهر وأعظم مخترع فى العالم من سيدة من أسرة متوسطة الحال أنجب منها ثلاثة أطفال خلال سنوات قليلة من زواجهما ثم رحلت عنه فجأة دون سابق إنذار ليتوقف فترة عن مواصلة نجاحه ونجاح البشرية .

وتزوج أديسون للمرة الثانية ، وكما كان الحال مع امرأته الأولى أنجب أيضا ثلاثة أطفال وبدأ مع استقراره الثانى يعود إلى تقديم خدماته إلى الإنسانية المعذبة !

فقد عمل أديسون على تطوير كاميرات السينما ، وساهم في عملية
اختراع التليفون ، حيث ابتكر الكاربون الذى ينقل الصوت ، وساهم في
اختراع أجهزة كثيرة كالتلغراف ، والآلة الكاتبة وهو الذى اخترع البطاريات
الجافة والميكروفونات .

وقد اخترع أديسون أيضا المصابيح الكهربائية بعد ما اكتشف أنه داخل
فراغ يمكن أن تتحرك الكهرباء بين سلكين دون أن يتصلا .

كما وضع أديسون العظيم أسس صناعة الإلكترونيات . وأصبح شريكا
في عدد كبير من الشركات الصناعية ، ومن أهمها شركة جنرال اليكتريك .

وهكذا استطاع الولد الشقى ، والتلميذ الفاشل (المتخلف عقليا) كـ
اتهمه مدرسوهُ ، أن يضىء لنا الدنيا ، ويسجل اسمه بين الخالدين في شتى
مجالات الحياة كأكبر عبقرية عرفها التاريخ حيث إن العالم يشهد مخترعا قد
مثل هذا الكم الهائل من الاختراعات الرائعة خلال سنوات عمره التى
امتدت أربعة وثمانية عاما بين ١٨٤٧ - ١٩٣١ .





عبد الله النديم
عامل التآمراف اعظم خطباء عصره

كان سيد المناير ، وأعظم فرسان الكلمة في عصره . كان إذا تحدث أضرع نارا ، وأشعل ثورة ، وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الكفاح الذى لا ينقطع ، والجهد الذى لا يتوقف ، والروح الوطنية المتأججة ، التى لا تعرف اللين ، أو الاستسلام .

هكذا كان عبد الله النديم خطيب الثورة العراقية ولسانها الناطق ، الذى لم يكن هو نفسه سوى ثورة مضطربة دائمة ، حتى عندما هدأت الثورة ، وسكن الثوار ، واستسلموا للأمر الواقع ، رفض الخضوع والاذعان ، ومضى في ثورته يحث الناس على مقاومة الظلم ، ويحرضهم على قتال الظالم .

ولم يكن عبد الله النديم مجرد خطيب وسياسى ، وإنما كان أديبا عظيما يملك ناصية البيان ، يقرض الشعر ، فيدع في نظمته ، ويخط الثر فيبرع في كتابته ، وقد كان بحق عالما من أعلام السياسة والأدب في عصره وفي كل العصور .

وقد كان للنديم معركة أخرى في طفولته وصدر شبابه ، حيث كان عليه أن يبدأ من تحت الصفر حتى يبلغ ما وصل إليه من مجد وشهرة ومكانة بارزة في تاريخنا .

فقد وُلِدَ النديم في أسرة فقيرة بالكاد تشق طريقها في مجتمع لا يرحم الفقراء ، ولا يحترم سوى كان يملك سلطان الأهل أو المال . كان أبوه واسمه « مصباح إبراهيم الإدريسي » نجاراً بدار صناعة السفن في مدينة « الإسكندرية » التى نزح إليها في شبابه من « الشرقية »

مسقط رأسه . وبعد فترة من الزمن افتتح أبوه مخبزا صغيرا كفل له الكفاف من العيش .

وعندما رُزِقَ الأب بابنه « عبد الله » توسم فيه الكثير ، وتمنى له ، ما لم تسمح له به الظروف ، فقد كان يريد لابنه مستقبلا أفضل مما كان عليه الحال معه .

وقد ساعد الأب على ذلك ما أظهره الطفل في أيامه الأولى « بكتاب الحى » من نبوغ ، وحب للعلم ، والتحصيل ، ومقدرة على حفظ القرآن الكريم كله قبل بلوغه التاسعة من عمره .

ولأن عبد الله النديم كان صبيا واعداً يبشر بالكثير ، فقد أدخله والده معهد « الجامع الأنور » الذى أنشأه الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية لدراسة علوم الدين واللغة على غرار ما يجرى بالأزهر الشريف .

وبعد سنوات من العلم والتحصيل على أيدي كبار المشايخ والعلماء ، أحس النديم بأنه حصل من المعارف والعلوم ما يكفيه ، وأن المعهد لن يقدم له المزيد ، وشعر بالضيق لجفاف الدراسة ، فهرب من المعهد ، وذهب يتردد على مجالس الأدب والأدباء .

ومن هنا أخذت مواهب النديم ، وقدرته الفائقة على نظم الشعر ، وإلقائه تظهر جلية واضحة ، وذاع صيته ، وأصبح أحد نجوم الساحة الأدبية ، يجالس عمالقة الأدب ، وينادم الكبراء ، وينطلق لسانه بالشعر والزجل والنوادر والفكاهات .

وأخذ النديم يتجول بين أرجاء البلاد حيث قضى قرابة عام ينزل ضيفاً على العمدة والأعيان الذين كانوا يحتفون به لما لديه من أدب وشعر وقصص

وأحاديث جذابة مسلية ، وعاد النديم من رحلاته وهو يحمل هذا اللقب الذى أضيف إلى « عبد الله » بقية حياته .

وعندما عاد صاحبنا إلى الإسكندرية ولم يكن قد بلغ الثامنة عشر بعد ، تعلم منه فن إرسال الإشارات التلغرافية ليلتحق بعد ذلك بمكتب التلغراف المحلى ، ثم مكتب تلغراف القصر العالى حيث كانت تقيم والدته الخديوى إسماعيل .

وما أن استقر النديم بالقاهرة ، أخذ يستأنف ترده على مجالس الأدب والأدباء ، كما بدأ يحضر دروساً لكبار العلماء فى الأزهر .

وفى هذه المجالس تعرف النديم على محمود سامى البارودى شاعر السيف والقلم ، وعندما وصل جمال الدين الأفغانى إلى مصر فى ذلك الوقت لينشد آراءه الثورية لتحرير الأمة الإسلامية من العبودية والاستعمار ، اتصل به النديم وأصبح من أبرز تلامذته .

وقد كان لتعاليم الأفغانى وآرائه أثراً بالغاً فى توجيه النديم إلى الثورة ، خاصة وأن النديم كان يرى مدى الظلم والذل والهوان الذى يتعرض له الشعب .

وقد ألهم أيضاً حماسه وإحساسه هو نفسه بالظلم عندما غضب عليه « خليل أغا » كبير أغوات القصر العالى ، وصاحب النفوذ الكبير ، فأمر بجلده بالسياط وطرده من عمله بالقصر شر طردة .

وترك النديم القاهرة ، وسار إلى المنصورة ليفتح دكاناً لبيع الخردوات ؛ ولكنه أفلس وأغلقه ، بعد ما تركه وانغمس فى مجالس العلم والأدب ، واتجه النديم إلى طنطا ثم عاد إلى القاهرة من جديد .

وعقب عودته ، انضم مرة ثانية إلى مجلس الأفغانى ولكن كأحد أبرز التلاميذ الذين قرر الأفغانى إعداده لدور قيادى سيغير مجرى حياته .

فقد جعل الأفغانى تلميذه النديم - لما يتمتع به من مواهب وقدرات فذة - رسول دعوته بالإسكندرية للتحرير من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والاحتلال الأجنبى .

وهكذا سارع النديم إلى الإسكندرية يحاول تكوين رأى عام مستنير ، وتنظيم المقاومة الشعبية ، وتحرير الصحف التى تعبر عن جماعة الأفغانى أو المحفل الماسونى الذى أسسه المصلح الكبير .

وما أن حط النديم رحاله بعروس البحر المتوسط حتى بدأ رحلة كفاحه السياسى والثورى الطويلة ؛ وتحول من نديم للكبراء والعمد والأعيان بمجالس الأدب إلى زعيم ثورى ظل يقاتل ويحارب ويناضل حتى الموت .

فقد انضم النديم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، وأخذ ينشر المقالات التى تدعو للثورة على الخديوى والاستعمار ، وأخذ يحرر أسلوبه من المحسنات المتكفلة وسائر ألوان البديع ، واتبع أسلوباً أقرب إلى العامة فى مجال دعوته إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وظهر حب النديم للخطابة ، والتف حوله الناس فى كل مكان ، وأصبح أشهر خطباء عصره ، وقد كون مدرسة علم بها النشء فن الخطابة وكيفية اتخاذها وسيلة لتثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومى ، وكانت هذه المدرسة جزءاً من « الجمعية الخيرية الإسلامية » التى أسسها النديم لإيجاد حركة تعليم لا تسير على نهج المدارس الحكومية .

وأخذت الصحف تنشر خطب النديم في كل مكان كاملة ، وانهاالت عليه الألقاب « خطيب الشرق » ، وعلى جماعته « سوق عكاظ » ، وعندما جاء الخديوى توفيق كان النديم قد مد نشاط الجمعية فأصبحت لها فروعاً كثيراً في المدن الكبرى ، وانضم إليها مئات الآلاف .

أنشأ النديم مجلة باسم « التنكيت والتبكيك » وكان يتخطفها رجل الشارع لكونها مرآة تعبر عن واقع حاله ، وتهاجم طبائع الاستبداد ومساوىء الاحتلال بأسلوب رائع وسهل يجمع بين النكتة والقصة .

وقد حدث أن كان أحمد عرابى يمهد مع زملائه للثورة العرابية فوجد في النديم خير متحدث باسمها ، وأعظم خطيب لها ، يجمع الشعب حولها ، وقد كان كذلك وانضم النديم إلى جيش عرابى ، وكان المدنى الوحيد وسط صفوف العسكريين .

وقد ظل النديم بجانب عرابى خلال حربه ضد القوات البريطانية حتى وضعت الحرب أوزارها ؛ ورغم هزيمة عرابى إلا أن النديم ظل يلهب حماس الشعب ، ويشعل ثورته ضد قوى الظلم والطغيان حتى ألقى القبض عليه في شهر أكتوبر عام ١٨٩١ ونفى إلى « يافا » .

وبعد عام واحد عاد النديم وأصدر مجلة « الأستاذ » وأخذ يهاجم الإنجليز حتى أصدروا أمراً بنفيه إلى « يافا » مرة أخرى ثم الأستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعيينه في وظيفة كبيرة بالبابة العالى .

وما هى أربعة أعوام حتى أصيب النديم بالسل ومات فى العاشر من أكتوبر عام ١٨٩٦ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين تاركاً سيرة عظيمة لخطيب ومناضل عظيم .





رہبرانت

اعظم مصور آنجیتہ البشریة !!

هو عبقرى بكل معنى الكلمة .. ورغم مرور أكثر من ثلاثة قرون على رحيله إلا أن فنه العظيم ، وتراثه الخالد جعل اسمه يتوهج ، ويزداد لمعانا كلما مرت عليه الأيام ، وإذا كان هذا الملهم المبدع « معجزة زمانه » ، و « عبقرى عصره » - على حد تعبير معاصريه ، وإذا كان هذا العملاق الفذ « المصور الأعظم » كما يصفه نقاد اليوم فإن ما خلفه من تحف رائعة جعلت منه أسطورة في عالم الفن والجمال .

هذا هو الرسام الهولندى الفذ رمبرانت أعظم مصور أنجبه التاريخ ، وأكثر رسامي العالم من حيث غلو ثمن لوحاته .

ولكن هذا الهرم الشامخ له قصة غريبة في غاية الغرابة فقد كان عليه أن يتجرع شتى كئوس الصبر ، ويتحمل كل صور الأسى ، والألم حتى يحفر بريشته اسمه بين عباقره عصره الذين تفوق عليهم فيما بعد .

وإذا كان رمبرانت قد بدأ حياته معدما ، فقد أنهاها أيضا معدما ، ورغم تعاظم ثمن لوحاته ، وخاصة بعد وفاته ، إلا أن صاحب كل هذا الإبداع ، وكل هذه العبقرية ، ذاق الأمرين حتى يجد قوت يومه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد عاش رمبرانت آخر أيامه مفلسا لا يملك مليا واحدا ، يطارده الدائنون ، وتستوقفه لعناتهم لعجزه عن السداد .

ولكن ما هي قصة كفاح هذا الفنان الذى تدفع عشرات الملايين للوحاته اليوم عن طيب خاطر ، وبلهفة ما بعدها لهفة .. كيف حول صاحبنا

الهزيمة إلى نصر ، لم يقبض في حياته ثمنه .. وكيف ترك للبشرية تراثا فنيا خالدا من عصارة فكره ، وخصب خياله ؟!

بداية رمبرانت بداية تعسة ليس فيها ما يعين على النبوغ أو يدفع إلى الاتجاه إلى الفن ، فقد ولد هذا الرسام في أسرة فقيرة بالكاد تسد رمقها في عالم لا يعرف الرحمة ، ولا يعرف الوسطية ، فالناس إما غنى شديد الثراء ، أو فقير شديد البؤس والشقاء .

ولد رمبرانت بمدينة « لايدن » في الخامس عشر من يوليو عام ١٦٠٦ ، وكان أبوه خبازا ، كما كانت أمه أيضا ابنة خباز ، في بيت متواضع نشأ الطفل وسط سبعة إخوة هو أصغرهم جميعا .

ووسط جو تخيم عليه الكآبة والإحساس بالظلم وعدم المساواة ، وأمام هذا التمييز الصارخ بين قسمي المجتمع في هولندا ، الغنى ، والفقير اكتشف رمبرانت أن عليه أن يسير على نهج يقيية لإخوته ، ويعمل لدى أى تاجر بأية وظيفة ، ليجد ما يسد به رمقه ، ويستر به جسده الذى كان يقتله الصقيع عندما تشتد قسوة فصل الشتاء المرعب في بلاده .

ولكن روح الفنان الكامنة فيه أخذت تدفعه إلى طريق آخر . طريق تجد فيه ما خلقت له ، وجاءت الحياة من أجله ، لقد أصر الصغير على التعليم ، وأمام رغبته ذهب به أبوه إلى المدرسة الابتدائية ليبقى فيها عدة سنوات .

وفي هذه المدرسة لم يجد الصغير وقتا كافيا لممارسة هوايته التى بدأت تتفتح لتوها ، وتعلن عن نفسها ، فقد ضاق ذرعا بمواد دراسية لاحصر لها ، وكان التعليم يعتمد على شحذ الذاكرة ، والقدرة على تخزين أكبر كم من المعلومات ، وعجز رمبرانت عن متابعة دروسه ، وكان يُضرب عادة على

أبدي مدرسيه بسبب انشغاله عن الدرس بالرسم . مدرس واحد فقط كان سعيدا بالصغير هو مدرس الرسم .

وبعد أن أبدى الغلام استيائه من المدرسة ، وأبلغ والده بعدم رغبته في إكمال تعليمه عمل مع أخوته أعمالا مختلفة لبعض الوقت قبل أن يبدأ تعلم اللاتينية ولكنه لم يفلح أيضا ، ولم يبدأ أى استعداد يُذكر .

وضاق والده به ذرعا ، وأخذ يعنفه ، ويطالبه بترك تلك الهواية « اللعينة » التى تذهب بوقته ، وتفسد عليه دراسته ، وتحول دون عمله كسائر أخوته للحصول على لقمته وسترته .

وبعد مشقة ، استطاع رمبرانت إقناع والده بإلحاقه بمرسم أحد الفنانين وكان يُدعى « فان سوانبرج » فتعلم على يديه لمدة ثلاث سنوات ، وذكر رمبرانت - فيما بعد - أنه كانت لهذا الفنان قدرة عجيبة على أن يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن التخلي عن ريشته هو بمثابة الانتحار بعينه ، وأن الفن هو تصوير الحياة بحسنها وقبحها ، بصدقها ، وكذبها ، بحلوها ومرها .

وقد استطاع رمبرانت خلال سنوات عمله مع سوانبرج أن يتعلم كيف يستثمر فنه في الحصول على قوته ، وكيف يحصل على المال أيضا لتطوير مهاراته ، وتحسين أدواته ، والإنفاق على استيعاب الدروس الفنية التى يمكن أن تصقل موهبته ، وتجعل من ريشته أداة تعبيرية على مستوى عالٍ من الروعة والجمال والقدرة .

وما أن جمع رمبرانت بعض المال من بيع بعض لوحات له ما هى إلا بدايات أولى ، أو تجارب لم تكتمل ، سافر صاحبنا إلى « أمستردام » ليقدم نفسه إلى الفنان « بيتر لاستمان » الذى كان من أبرز فناني هولندا وأوروبا فى تلك الحقبة .

وفى كنف هذا الفنان الكبير تعلم رمبرانت الكثير وأظهر أيضا من مواهبه الكثير حتى إن أصدقاء لاستمان والمقربين إليه أخذوا يتحدثون عن الرسام الصاعد بقوة الصاروخ .

وبمجرد أن أحس رمبرانت بأنه أدى واجبه بإخلاص تجاه فنه ، وأن امتلاك القدرة على تطويع موهبته وريشته لأفكاره الذاتية التى كانت تعبر عن اتجاه جديد فى فن التصوير ، اكتفى بهذا القدر من العلم والدراسة ، واكتساب المهارات ، وعاد إلى مدينة « لايدن » .

ولم ينتظر رمبرانت طويلا حتى افتتح مرسمه الخاص ومنذ ذلك الحين بدأ رمبرانت فى التآلق ، وأخذت شهرته تزيد يوما بعد يوم .

وكان اهتمام رمبرانت الرئيسى منصبا على الصور الشخصية مستغلا براعته اللا محدودة بانتزاع أدق ملامح وتعبيرات الوجه ، وتأكيد شخصية صاحبه ، ولم يترك رمبرانت أحدا من أسرته ، أو أقربائه ، أو أصدقائه ، ومعارفه إلا ورسم صورة له ، ويكفى أنه رسم نفسه عشرات المرات ، حتى إننا إذا ما قمنا بترتيب هذه الرسوم أو تلك اللوحات سنجد لدينا شريطا مسلسلا لحياة رمبرانت فى مراحلها المختلفة .

وما أن عرف مجتمع النبلاء ، والأثرياء قدرات هذا الرسام الفذ حتى انهالت عليه طلبات رسم لوحات شخصية لهم مدفوعة الثمن ، ولما كان صاحبنا فقيرا ، يريد فقط أن يضمن حصوله على لقمة العيش ، والحد الأدنى لنفقات المعيشة ، فقد قبل المهمة ، وربما وجد فيها فرصة لكى يحل على ما يستحق من مكانة وشهرة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

ويبدو أن لوحات رمبرانت الأولى كانت ثورة في فن الرسم في بلاده ، حتى إن جميع النبلاء أخذوا يستميتون لكى يرسم لهم هذا المصور العظيم صورهم الزيتية حتى يزينوا بها جدران قصورهم ، أو منازلهم ، وفي ذلك الوسط البرجوازى وجد رمبرانت في البداية أن تصوير الأشخاص مهمة مريحة ؛ ولكنها لا ترقى إلى طموحه الفنى ومواهبه الفذة .

وما أن وقع اختيار صاحبنا على العاصمة « امستردام » لتكون مقرا لم رسمه وحياته الفنية حتى بدأ يزاول هوايته الحقيقية ، ويرسم ما يشعر أنه إضافة جديدة لهذا الفن التشكيلي العظيم ، وكان من أعظم ما رسمه رمبرانت هناك لوحته الشهيرة الت تحمل اسم « محاضرة في التشريح » والتي ظهرت فيها قدرته غير العادية على إبراز ملامح ، وتعبيرات الوجوه المختلفة لمجموعة من الأطباء يحيطون بجثة راقدة فوق المشرحة ، وكيف خلق الرسام الكبير انسجاما وتناغما من الرؤوس التي تعلو الياقات البيضاء المنبثقة من ظلام خلفية اللوحة القائمة !

ولكن نجاح رمبرانت الساحق لم يستطع أن يملأ الفراغ القاتل الذى كان يحيل حياته إلى فوضى وعدم استقرار ، وإحساس قاتل بالوحدة ، وفي عام ١٦٣٣ تزوج رمبرانت من ابنة أحد تجار التحف في امستردام تدعى « ساسكيا » وكانت على جانب كبير من الجمال والفتنة والحسن والثراء أيضا .

وقد كان لزواج الرسام الشهير أثر عظيم في لوحاته التي انعكس عليه ، وظهر فيها بجلاء جو المرح والبهجة والسعادة التي خلقتها امرأته الرائعة ، وهناك لوحة شهيرة رسمها رمبرانت بعد زواجه تجمع بينهما هي دليل صادق على هذا التحول في ريشة هذا العبقرى .

ويبدو أن السعادة لم يُكتب لها أن تدم طويلا في حياة رمبرانت الذي ذاق الأمرين حتى يُكسّون عشه الهادىء ، وبيته الجميل الذى كان يجمع فيه كل ما تقع يده عليه من لوحات ، وتحف وأبليكات .

فقد هاجمت الأمراض زوجته الملهمة عقب ولادة ابنه « تيتوس » ، ولم تمكث « ساسكيا » في فراشها طويلا ، حيث عاجلتها المنية لترك الفنان الكبير ووليدها الصغير في جو مفعم بالأسى والحزن والألم يكابدان مشقة الحياة دون حنان الزوجة ، وعطف الأم .

وإذا كنا نريد أن نؤرخ للفصل الأخير من حياة رمبرانت .. أو بداية النهاية ، فيمكن أن نجعلها تبدأ منذ اللحظة التى فقد فيها حليته وملهمته وأم ابنه . حيث إن جميع المربيات لم يفلحن في تعويض الصغير عن رحيل أمه .

ومما زاد الطين بلة أن إحدى المربيات استماتت لكى تدفع سيدها الرسام المشهور للزواج منها ، ولما فشلت في إثارة سيدها ، الذى تعامل معها بفظاظة وغلظة ، تقدمت هذه المربية وكانت تدعى « جيرتغ » بدعوى أمام المحكمة تتهم فيها رمبرانت كذبا بمحاولة اغتصابها ، بعد أن وعدها بالزواج ، ثم أخلف وعده ، وتبرا المحكمة ساحته ، وتخرج المربية من البيت إلى الأبد .

وعندما وجد صاحبنا مدى عطف وحنان المربية « هندريك » على ابنه حتى فكر في الزواج منها ، ولكن زوجته « ساسكيا » كانت قد أوصت قبل وفاتها بكل ثروتها إلى رمبرانت شريطة ألا يتزوج من بعدها ، وإن فعل تؤول كل ثروتها إلى ابنها تيتوس .

ويضطر رمبرانت إلى التخلي عن فكرة الزواج بعد أن عرف الجميع العلاقة الوطيدة التي تجمع بينه وبين المربية ، الأمر الذي تناقلته الصحف وجعلت منه فضيحة هزت كيان صاحبنا ، ومع ذلك استمرت هندريك بالمنزل ؛ لأن علاقتها بالأب ، والابن تفرق ما يتصوره المرء من قوة ، ومثانة .

ولكن حدث أن أثقلت الديون كاهل رمبرانت وأصبح ما لديه من بقية ميراث زوجته على وشك الضياع أيضا فاتفق ابنه مع المربية على الحجر على أبيه ليكون شركة تقوم بتسديد ديون أبيه ، وتصلح من أوضاع الأسرة المالية .

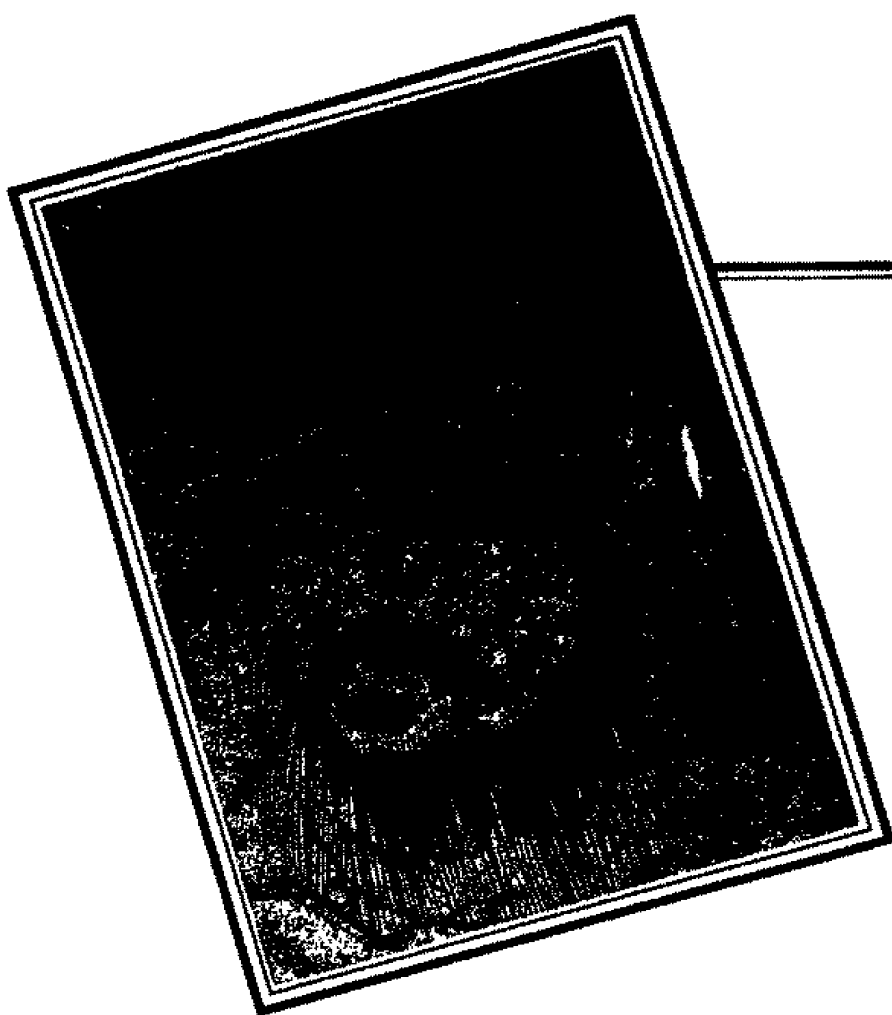
ورغم ضيق وتبرم رمبرانت بهذا التصرف في البداية إلا أنه وجده في النهاية حلا رائعا يتيح له التفرغ للرسم والإبداع .

وما هي أعوام قليلة حتى يختطف الموت المربية هندريك ويسود البيت الظلام ، والوحدة ، ويتلقى رمبرانت صدمة أخرى أقوى وأعنف زلزلت كل كيانه ، فما أن تزوج ابنه من ابنة أحد الصاغة ، حتى اختطفه الموت تاركا للفنان الكبير حفيدا جاء إلى الدنيا بعد وفاة أبيه .

وبدأت مسحة من الحزن تظهر على ريشة رمبرانت وتسوء أحواله المالية من جديد ، ويهاجمه الفلاس والعوز والحاجة ، ويرفض الرجل أن يبيع فنه وعاش آخر أيامه في مأساة حيث اجتمع عليه الفقر والمرض ، رغم بيع لوحاته فيما بعد بملايين الدولارات .

ولفظ رمبرانت أنفاسه الأخيرة في الرابع من شهر أكتوبر عام ١٦٦٩ ، لتنتهى حياة أعظم مصور أنجب التاريخ استطاع ترويض النور ، والظل ليصنع منهما ملاحم تصويرية لم يسبقه أحد إليها .





————— كونفوشيوس —————
فلسفة أم مذهب أم نظام حياة ؟!

عندما مات أبوه لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره بعد ، وما أن شب عن الطوق حتى اكتشف أن عليه أن يتعايش مع أمرين في غاية القسوة أو كما يقول الشاعر : أحلاهما مر ، هذين الأمرين هما : الفقر وضالة الشأن خاصة وأن المجتمع الذي قدر له أن يولد ويكبر فيه لم يكن يعترف إلا بسلطان المال أو جبروت السلطة .

وعلى الرغم من أن الطفل الفقير الذي جاء إلى الدنيا في عام ٥٥١ قبل الميلاد ورحل عنها بعد اثنين وسبعين عاما لم يجد ما يسد به رمقه ، وبالتالي لم يملك ما يدفعه مقابل تلقيه العلم ، إلا أنه استطاع أن يعتمد على نفسه في تحصيل المعارف ، واستيعاب العلوم حتى أصبح بلا منازع أحد أعظم المعلمين في التاريخ كله !

هذا هو الفيلسوف والحكيم الصيني كونفوشيوس الذي يعد المسئول الأول عن صياغة تفكير ، وعقيدة وأخلاق وعادات ، وتقاليد أهل الصين أكبر شعوب العالم من حيث تعداد السكان على مدى أكثر من عشرين قرن من الزمان .

فقد وضع كونفوشيوس مذهباً يضمه جميع الأفكار الروحية التي تهدي السلوك الاجتماعي والأخلاقى لشعب الصين ، والقادرة على خلق حياة فاضلة كريمة تقدم فرصاً متساوية للجميع للعطاء والبذل والبناء .

كما وضع الفيلسوف العظيم فلسفة قوامها الأخلاق وتنقسم قسمين أولهما أخلاق الفرد أو الأخلاق الشخصية وهى التى تنبع من ضمير صاحبها اليقظ ، وعقله المستنير ونفسه التى تنزع للخير دائماً ، ثم أخلاق الجماعة أو

الحكومة التى تخدم الشعب وتكون تطبيقاً لمثل أخلاقية أسمى ، وقال كونفوشيوس : « إن عماد الدولة لا بد أن يكون « الأخلاق .. الأخلاق .. ثم الأخلاق » .

وقد كان كونفو شىوس على قدر كبير من الثقافة والروحانية بحيث كان يستطيع أن يتغلغل داخل أعماق النفس البشرية ، ويقرأ ما وراء الحجب من نوازعها ، وغرائزها ، ورغباتها ، ومطالبها ، وكما كان الناس يلاحظون عظمة الشاب الذى لم يتجاوز الثامنة والثلاثين ، كان هو أكثر إيماناً بأن له مهمة أسمى من مجرد موظف حكومى بسيط التى انتهى إليها ، ولذا قرر ترك عمله بسلك الموظفين ، واستقال .

ولكن كونفوشيوس لم يكن ليستقيل بهذه السهولة ، فقد فكر كثيراً ، وكان يتراجع ، بيد أن هذه المرة كانت كما كتب فى استقالته احتجاجاً على الظلم الفادح الذى تعرض له الدوق الشرعى فى مقاطعته الذى تم اقصاؤه دون وجه حق .

ولعل هذه الحادثة قد ألهمت حماسه ، ودفعته إلى الاتجاه للتعليم ، فجمع حوله حشداً من التلاميذ وأخذ يعلمهم كافة فنون الحياة ، وسبل بناء شخصية سوية ، ومجتمع فاضل .

وقد ظل كونفو شىوس يطوف أرجاء الناس يعظ الناس ، ويعلمهم ، ويثقفهم طيلة ستة عشرة عاماً حتى ذاع صيته ، وأصبح المعلم الأول فى الصين وبعد رحلة عناء طويلة ، عاد كونفو شىوس للعمل بالحكومة مرة أخرى .

ولكن الفيلسوف والحكيم لم يعد ذلك الرجل الذى عمل من قبل فى سلك موظفى الحكومة ، لقد عاد هذه المرة معلما ومرشدا وداعيا للتغيير والدفاع عن حقوق المظلومين والمحرومين ، فأصبح يمثل خطرا على رؤسائه المستبدين ، ومدرائة المرتشين ، فما كان منهم إلا أن يحكوا له المؤامرات والمكائد والدسائس حتى طُرد من الحكومة .

ولكن كل ما تعرض له هذا العبقري الفذ لم يثنيه عما وهب نفسه من أجله ، فقد أبى إلا أن يمضى فى تعليم الناس دون هوادة . إنه نموذج آخر لسقراط الفيلسوف الذى لقى حتفه من أجل نفس هذه الغاية النبيلة .

ترك كونفوشيوس المدينة كلها ، وعاد إلى سيرته الأولى حيث طاف بالبلاد متجولا قرابة ثلاثة عشرة عاما مبشرا وداعيا ومصلحا حتى عاد إلى بلدته الصغيرة الواقعة بولاية « لو » شمالى الصين ، ليبقى فيها سنوات خمس توفى بعدها وكان ذلك فى عام ٤٧٩ قبل الميلاد .

ورحل الرجل ولكنه باق حتى اليوم للدرجة التى ينظر إليه البعض على أنه أحد مؤسسى الديانات الكبرى ، رغم أنه لم يكن فى حقيقة الأمر سوى فيلسوف وحكيم ومعلم استطاع أن يشكل فكر وشخصية شعبه القومية عبر قرون عدة من خلال ما تركه لهم وأثر فى تكوينهم من طريقة فى الحياة ونظام فى التعامل وفق مذهب يعتمد الحب وحسن المعاملة والأمانة والاستقامة والاحترام المتبادل منهجا له . مذهب يفرض على الحاكم أن يكون مؤهلا خلقيا وسلوكيا للحكم ، أى أن شرط استقامة الحاكم وأتباعه قيم ومثل عُلّيا لازم لكى يتولى الحكم .

كما تضمن مذهب كونفوشيوس معالم الحكومة الشرعية وأهمها أن يؤمن أفرادها بأن وجودهم مرتبط بخدمة الشعب وليس العكس .

وقد تطرق كونفو شيوس أيضا إلى العلاقات داخل الأسرة الواحدة فرسم صورة تفضيلة لما يجب أن تكون عليه علاقة الرجل بالمرأة أو الزوج بزوجته وكما فرض على الزوج احترام امرأته ، وحسن معاشرتها ، ومعاملتها برفق ولين ، طالبها أيضا بطاعة زوجها ، وحسن معاملته .

وقد ترك هذا الحكيم العظيم لبلاده وللإنسانية تراثا عظيما من القيم والمثل والأقوال الماثورة ويكفى أنه أول من قال : « حب لغيرك ما تحبه لنفسك » .

ويؤمن الشعب الصينى حتى يومنا هذا بفلسفة كونفو شيوس إيمانا لا حد له ، ويشاركه فيها اليابانيون والكوريون الذين ما أن وصلتهم أبناؤهما في بداياتها الأولى حتى أمنوا بها أيضا .

وهكذا رحل كونفو شيوس تاركا وراءه شخصية قومية متميزة ومتفردة لشعبه هو الذى صاغها بفكره وعقيدته الخاصة ، فكان نعم المعلم .

وربما يكون ختامنا للحديث عن أحد أعظم المعلمين فى التاريخ أكثر دقة ، وإيجازا بسر ما قاله كونفو شيوس نفسه عن مذهبه وأسلوبه فى التعليم .. يقول : « هل تريد حقا أن تعرف رأى فى هذا العالم ؟ دعنى قبل كل شئ اتخلص من العوالم الأخرى ، فمع إننى اعتقد أن ثمة قوى روحية فى الكون لكننى لا أستطيع أن أدرك طبيعة ما فوق البشر من الكائنات ، كما إننى أجد هذه الحياة ممتعة بحيث لا أفكر فى الموت أو فيما يلى الموت .

وكل ما يشغل اهتمامى هو خلق الإنسان ، فالعقل حسن والذكاء أحسن ، ولكن الأخلاق هى التى تجعل من العقل دائما خادما ، وهى التى تجعل الفرد صالحا أو طالحا ، ضعيفا أو قويا .

ولقد حاولت أن أرى الخلق عن طريق التعليم ، فعلمت تلاميذى أربع مواد رئيسية هى : « التاريخ كى يلهموا بالعظيم من أعمال الإنسان ، وكى يجدوا فى دراسة طبيعة البشر ما يكبح جماحهم ، والشعر كى يكونوا ذوى خيال ، والموسيقى كى يتطرق الانسجام والرشاقة إلى نفوسهم ، وحسن الطباع كى يكونوا سادة » .





سید درویش

أسطورة لم تنته بعد !!

وُلِدَ في حارة ضيقة تبعد كثيرا عن المدينة والعمران الذي تعايشه أحياء المدينة ألباقية . كان أهل حارته فقراء ، بسطاء ، مطحونين ، كادحين ، يصلون الليل بالنهار حتى يجدوا ما يقيهم مرارة الحاجة ، وذل السؤال . أما هو فلم يكن أكثر منهم حظا ، أو أوفر منهم حالا . هو ابن نجار بسيط شأنه شأن بقية أبناء جارته يشقى معهم ، ويعانى مثلهم .

ورغم الفقر وضيق العيش إلا أن « سيد درويش » فتان الشعب ، ابن النجار البسيط ، استطاع أن يقتحم التاريخ ليخط اسمه في سجل الخالدين الذين لا تزيدهم الأيام إلا بريقا ولمعانا ، ولا تمر ذكراهم دون أن تعترف لهم شعوبهم بما قدموه من عظيم الأعمال ، التي تمثل مدرسة أو تيارا أو اتجاهها أو نقطة تحول في مسار التاريخ !

عندما وُلِدَ سيد درويش في السابع عشر من مارس عام ١٨٩٢ بإحدى الحواري الضيقة في كوم الدكة ، ذلك الحى الشعبى الضارب بجذوره في أعماق الإسكندرية القديمة ، اقترحت أمه تسميته « عباس » تيمنا بالخدوي عباس الذى كان قد تولى لتوّه الحكم ، رفض أبوه وأصر على تسميته « سيد » حتى يكون سيدا في حياته ، وليس عبدا ذليلا .

ورغم ضيق ذات اليد ، فقد حارب درويش البحر والد الغلام حتى يدخله الكُتّاب لكى يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ بعض آيات من القرآن الكريم . ولكن القدر لم يمهل الأب حتى يكمل الغلام تعليمه الأول ، فمات قبل أن يبلغ سيد السابعة من عمره . ومع أن أمه وكانت تدعى « ملوك » غير

ميسورة الحال إلى الدرجة التى تنفق منها على تعليم الغلام ، إلا أنها تحملت ، وكافحت ، حتى تضمن له الاستمرار فى المدرسة ، فقد رأت فيه ما جعلها تتوسم فيه خيرا كبيرا .

وقد بدأت مواهب وقدرات الغلام تظهر وتبدو جليلة بمجرد التحاقه بالمدرسة الابتدائية حيث كان يحفظ الأناشيد ، ويلقى الأغاني بصوت شجى ، ونغم عذب ، وخاصة أعمال الشيخ سلامة حجازى .

ولكن عظمة سيد درويش لم تكن وليدة اللحظة وإنما هى فطرية لدرجة كبيرة ، فقد ذكرت أمه ذات مرة أن ابنها كان يهتز ، ويستثار لسماع الموسيقى أو الغناء منذ أن كان فى شهره الأول ، حتى إنه كان يترك ثديها ، ويتجول بعينه بحثا عن مصدر الموسيقى أو الصوت .

كما ذكرت أنه كان يهوى الجرى وراء الباعة المتجولين والسقاة ليستمتع بنداءاتهم الجميلة التى كانوا ينشدونها لجلب الزبائن ، وترويج بضائعهم .

وقد كان الصبى الصغير مشهورا بين أقرانه ومدرسيه بالمدرسة بقدرته على الغناء الجميل ، حتى إنه كان يصحب التلاميذ عقب اليوم الدراسى إلى الساحات والحدائق ليغنى الأناشيد والأغاني ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد ذاع صيته فى الحارة والحي فأخذ الناس يلتفون حول الصبى الموهوب يستمعون إليه ، ويستمتعون بما ينشده ، ويصفقون لما يظهره من براعة ومقدرة .

ورغم أن سيد درويش كان فنانا حتى النخاع إلا أن أمه كانت ترى أن مستقبل الغلام لا بد وأن يذهب فى اتجاه آخر ، أكثر أمانا واستقرارا ، وضمانا لأيام قادمة لا يدري سوى الله ماذا يمكن أن يحدث فيها ، ناهيك من أن

نظرة الناس وقتذاك وخاصة الأبناء والأمهات للفن كانت ضيقة أو غير مشجعة !

قدمت الأم لابنها أوراقه في المعهد الدينى العلمى الذى كان قد فتح لتوه أبوابه فى تلك الأيام ، ورغم اهتمام الابن بدراسته فيه ، إلا أنه لم ينس الفن بل استمر فيه ، وأخذ يُجِى الحفلات والأفراح لأصدقائه والمعجبين به حتى أصبح خلال فترة وجيزة حديث الإسكندرية كلها ، وأحد أكثر من يشتهرون فيها بالغناء الجميل .

ومع الأيام لم يجد سيد درويش مفرا من الاعتراف بحقيقة واقعة فى حياته ؛ ألا وهى أن « صاحب بالين كذاب » وأن الجمع بين الفن والدراسة أمرا فى غاية الصعوبة ، فالسهر والأفراح اللازمة لكسب الرزق ودراسة الموسيقى بالاعتماد على الذات يحتاج إلى تفرغ تام . ورغم نجاحه بتفوقه فى السنة الأولى بالمعهد إلا أنه سرعان ما قرر أن يتركه من أجل الفن .

وبعد ترك المعهد تزوج سيد درويش وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولم تكن بالطبع هى الأخيرة فقد تزوج ثلاث مرات أخرى ، كما أحب كثيرات كُنَّ مصدرا لوحيه وإلهامه .

وفى ذلك الوقت ، استطاع سيد درويش لأول مرة أن يخرج العالم عملاقا فى مجال الفن عندما لحن طقطوقة « زرونى كل سنة مرة » ، وكانت عتابا رقيقا لامرأة أحبها وهجرته . وكان وقع الأغنية كالصاعقة التى نزلت فوق رؤوس الجميع فنبهتهم إلى أن هناك فنانا عظيما تصوغه الحياة ، وتشكله لكى يتبوأ مكانة عظيمة .

ولكن الفترة التي تلت هذا العمل المبدع شهدت تراجعاً ملحوظاً في تقدم سيد درويش الفنى حيث اضطرتته متطلبات الحياة ، وتكاليف المعيشة أن يغنى في الحانات والملاهى والبارات ، وظل هائماً على وجهه كل همه وشغله الشاغل هو توفير نفقات العيش لأمه وشقيقته وزوجته .

وأثناء غنائه ذات مرة على إحدى المقاهى ، سمعه الأخوان سليم وأمين عطا الله وعرضاً عليه السفر للشام ، ووافق وخرج لأول مرة في حياته من مصر وفي أول رحلة فنية في تاريخه الفنى ؛ ورغم عودته من الشام مفلساً إلا أنه استطاع التعرف على التراث الشامى وخاصة السورى وحفظ بعضه .

وبعد عودة سيد درويش ومولد ابنه محمد البحر عاود الغناء في الحانات والأفراح ثم سافر ثانية لسوريا ، وكانت رحلة ناجحة عاد بعدها ومعه بعض النقود ليبدأ تلحين أعماله الرائعة « في شرع مين » ، « ضيعت مستقبل حياتى » ، « ياللى قوامك يعجبني » ، « أنا هويت » .

ثم التقى سيد درويش مع الممثل الراحل نجيب الريحانى أحد أعظم نجوم عصره ، وجورج أبيض أحد رواد المسرح في مصر والعالم العربى ومعهم قام بتلحين عدد من الأوبريتات الاستعراضية منها «ولو» و «اشى» ، و «قولوا له» و « فشر » ورواية « العشرة الطيبة » .

وسرعان ما ذاع صيت سيد درويش ، وبلغت شهرته جميع أنحاء مصر والعالم العربى ، خاصة بعد ما أصبح اللحن الأول لفرقة على الكسار ومنيرة المهدية ، ثم أنشأ فرقة خاصة به ، ولحن روايتى « شهرزاد » و « البروكة » ؛ وكان أعظم ما يميز الحان سيد درويش وأغنياته هو قربها أو بمعنى أدق إلتصاقها برجل الشارع ، وتعبيرها عن معاناته وظروفه الصعبة وسط

احتلال ، وبطالة وكساد ومَن مهّد سيد درويش بفنّه لثورة شعبية ، وقدم
ألحانا حماسية تلهب وجدان الشعب ، وخاصة مع ثورة ١٩١٩ .

كما كانت هذه الثورة إيذاناً بمرحلة جديدة في حياة هذا العبقرى الفذ ،
فقد خرج سيد درويش في مظاهرات يقودها بنفسه ، ويلقى فيها أناشيد
الوطنية وعلى رأسها ذلك النشيد الخالد الذى لا يزال يلهب حماسنا كلما
سمعناه ، والذى أصبح النشيد الوطنى لمصر « بلادى بلادى لك حبى
وفؤادى » .

كما قدم سيد درويش أناشيد أخرى لا تقل روعة عن بلادى بلادى «
مثل « أنا المصرى كريم العنصرين » ، « قوم يامصرى مصر دايمًا بتناديك » .

ومن أشهر مواقف الشيخ سيد درويش الوطنية سفره إلى الإسكندرية
لاستقبال سعد زغلول الزعيم الوطنى لدى عودته من أوروبا ، وكان قد أعد
لحنًا وطنيًا لاستقباله في غاية الروعة .

ولكن لم يمهل سيد درويش حتى يلقي لحنه الجميل فقد وافته المنية
عقب وصوله الإسكندرية بيوم واحد . مات سيد درويش فنان الشعب
ولم يشيع جنازته غير نفر قليل ، مات دون أن يبلغ الثانية والثلاثين من عمره
ليسدل الستار على حياة فنية حافلة ، لعبقري قلما يجود الفن بمثله . رحل
سيد درويش في ريعان شبابه ، تاركاً تراثاً خالداً عاش وبقى وسيظل .





فان جوخ

المليونير الفقير !

ملايين الناس قد لا يعرفون أن الرسام العالمي الأسمر « فنسنت فان جوخ » كان مصابا بلوثة عقلية ، وأن هذه اللوثة كانت سر عذابه ، وشقائه الذى لم ينقطع منذ طفولته ، وحتى إطلاق الرصاص على نفسه تحت تأثيرها ، ليسدل الستار على حياة أحد أعظم الفنانين فى التاريخ .

فعند غروب شمس يوم الأحد السابع والعشرين من شهر يوليو عام ألف وثمانمائة وتسعين ، استوقف « فان جوخ » مشهدا ، لطالما كان يحلم بتصويره .. حقل صغير من حقول قريته « أوفر سورواز » . كان المشهد فى غاية الروعة . حقل ذهبى تتشعب فيه دروب صغيرة شقراء ، يحيط بها إخضرار مشرق ، وفى البعيد يطل أفق عميق الزرقة كأموج البحر ، تسرح فى خلفيته غريان بلون الظلام .

وبينما يضع « جوخ » فرشاته جانبا ، بعد إتمام لوحته ، فإذا به يشعر بضيق شديد ، أعقبته حالة عصبية حادة ، وارتعاشة سرت فى كل أوصاله ، إنها النوبة البغيضة ، الصرع الذى أضيف إلى ما لديه من أمراض ، وفجأة بدأت أسراب الغريان تنعق فوق رأسه ، وتحوم حوله ، فأخرج مسدسه وبدلا من أن يصوب عليها أطلق الرصاص باتجاه صدره لتنفذ رصاصاته إلى قلبه ، وتكتب نهايته المبكرة !

وهكذا مات « فان جوخ » منتحرا - دون قصد - تحت تأثير نوبات الجنون ، نتيجة لمرض الصداغ النصفى اللعين الذى داهمه فى فجر شبابه ، واستفحل فيما بعد ليأخذ صورا أكثر ضراوة ، وفتكا ، وتدميرا لصاحبها .

ورغم أن « جوخ » الذى ولد فى الثلاثين من شهر مارس عام ألف وثمانمائة وثلاث وخمسين عاش ومات فقيرا إلا أنه ترك تراثا خالدا حفر اسمه فى سجل العظماء ، وقد ولد صاحبنا فى بلدة « زوندبت » لأب قسيس بروتستانتى طيب القلب ، وكان وهو غلام يميل إلى العزلة والتجول وحيدا فى الحقول .

ومع أن « جوخ » لم يكسب من فنه ، ولم يبع لوحاته أثناء حياته ، وقاس الجوع والبرد والمرض ، إلا أن أعماله سجلت أعلى الإيرادات من محصلة بيعها ، حتى أن لوحة « عباد الشمس » مثلا بيعت فى ١٩٨٧ بـ ٣٦,٣ مليون دولار ، ولوحة « إيريس » بـ ٩,٥٣ مليون دولار .

ورغم أن « جوخ » مات فى ريعان شبابه ، إلا أنه ترك لنا ما يزيد عن ١٥٠٠ لوحة فنية نادرة كانت بداية ظهور المذاهب التعبيرية فى الفن التشكيل الحديث .

والحقيقة أنه ما من فنان كتب عنه مثل « فان جوخ » ، كما كانت حياته دائما ماثرا للجدل الواسع ، خاصة بسبب المواقف الغريبة فى حياته ، وآرائه الخاصة المتفردة فى الفن ، والنابعة عن تجربة ذاتية لصاحبها ، كما كانت لكل لوحة من لوحاته قصة تصلح وحدها الرواية عظيمة .

فهناك لوحة « لفان جوخ » يصور فيها نفسه وهناك خمادة حول أذنه اليمنى . ويروى الباحثون أن جوخ المصاب بلوثة جنون ، كان أحيانا غريب السلوك بدرجة هائلة حتى إنه قطع أذنه وقدمها لساقية الحانة الباريسية وتدعى « غابى » كدليل على حبه لها .

وتروى الكتب التى تناولت حياة هذا العبقرى الفذ أنه أراد أن يعيد إلى فتاة الحانة السيئة السمعة إنسانيتها الضائعة بين الرجال .. وضباب

الدخان .. والليل الأسود .. وأقداح الخمر .. فقال لها : « أحبك » فلم تصدق كلامه .. فقد سمعت هذه الكلمة ألف مرة من رواد الحانة وزبائن البار ، فما كان منه إلا أن قطع أذنه كدليل على حبها ، وقال : « إليك هذه الهدية الثمينة ، فاحتفظي بها » .

كما كان « لجوخ » قصة أخرى طريفة مع صديقه الفنان العالمى « جوجان » الوحيد الذى كان كثير الخلاف معه ، فقد رسم « جوجان » لوحة لجوخ لم تنل إعجابه ، لأنه كان يعتقد أنها لا تشبهه ، وكان رد « جوجان » أنه رسمها « لجوخ » كما تخيله فى سن المائة عام .

وقد انتابت « جوخ » فى تلك اللحظة نوبة جنون ، فأخرج مسدسه ، وأطلق على « جوجان » احتجاجا على موقفه ، وطاشت الرصاصات ؛ ولكن الصديقان افترقا ، ومع ذلك فقد كان يجمعها حب وود وصداقة لا حد لها .

وعندما مرض « جوجان » ولزم الفراش قرابة الأسبوعين ترك « جوخ » كل أعماله ، وذهب يقيم معه حتى يعتنى به ، ومهما كان من خلاف فى رأى بين « جوخ » و « جوجان » إلا أن كليهما كان معذبا يناضل من أجل رسالة الفن العظيمة .

ولم يكن « فان جوخ » كباقى رفاقه من المبدعين ، فقد كان الفن لديه شديد الخصوصية ، يرتبط أشد الارتباط بعقليته ، وجنونه ، وأحزانه وآلامه ، حتى إنه يتعامل مع الرسم من خلاله هو .. انظر إليه يقول : « لقد كنت دائما اعتقد أن ما أرسمه هو الحقيقة وأن الواقع ما هو إلا رؤية مزيفة لعالم الحقيقة داخلى » .

ويؤكد علماء النفس أن روائع « فان جوخ » وبالدات رسوماته العظيمة التي أبدعها قبل وفاته هي أكبر دليل على علاقة الفن بعلم النفس لأنها المرأة التي تعكس حالة الفنان النفسية والمزاجية ، وأبرز لوحات « جوخ » تلك التي يصور فيها نفسه ، ولعلها أصدق دليل على ذلك فقد رسم نفسه بأشكال مختلفة ، وملامح مختلفة تعبر عن حالات نفسية ومزاجية متباينة .

فقد رسم لنفسه لوحة « وجه بلا مشاعر » وتوجد بمتحف امستردام . وقد وضع فان جوخ في هذه اللوحة كل أحزانه وقال لأخيه في رسالة له . « هذه لوحة لرجل بائس وهذا ما سيقوله كل من يشاهدها » .

كما رسم لوحة لنفسه تصور حادثة قطع أذنه وهي الآن بحوزة ثرى أمريكى يُدعى « لى . ب . بلوك » بشيكاغو .

كما رسم لنفسه لوحة أخرى هي الآن بمتحف « اللوفر » فى باريس ، تعبر عن الوحشة القاتلة ، والوحدة المخيفة التي كان يحياها .

وهكذا كانت حياة « فان جوخ » التي لم تتجاوز السبعة والثلاثين عاما وكانت رحلة شقاء مع الألم والعذاب والتعاسة ، ورحل الطالب الذى بعث به أبوه لدراسة اللاهوت ، ورفع المعاناة عن كاهل الناس فزادته عذاباتهم عذابا فترك هذه المهمة ، وحاول أن يرفع صرختهم من خلال أعماله التي كانت تركز على البسطاء والفقراء والمعدمين . رحل المليونير الفقير الذى بيعت لوحاته بالملايين بعد وفاته منتحرا تحت تأثير مرضه !!

□○□○□



طه حسين
كروان لم ينقطع عن الدعاء

ليست البطولة أن تترفع على البطل .. البطولة هي أن تكون البطل ،
أو حتى تحاول أن تقترب منه بقدر الإمكان ، بعض الناس يفعلون هذا وهنا
يكون المرء منهم عظيماً ؛ ولكن هناك أناسا يصنعون بطولة لم يقدر لأحد أن
يأتى بها من قبل ، ويجعلون من أنفسهم نموذجاً متفرداً ، ومستقلاً لبطولة
نادرة من نوع خاص ، ويكون المرء منهم هنا أعظم .

ومن هؤلاء العظماء الذين صنعوا من أنفسهم ملحمة بطولية تتناقلها
الأجيال ، وتتعلم منها الأجيال ، وتحذو حذوها الأجيال على مر العصور
« عميد الأدب العربى الراحل الدكتور طه حسين » .

وعندما أراد عميد الأدب العربى أن يلخص لابنته مأساته ؛ وكيف
حولها إلى قصة نجاح منقطع النظير ، وانتصار ساحق لأحد أفراد الطبقة
الفقيرة الذى لم يكن يقدر لأمثاله - فى ذلك الوقت - أن يبلغوا ما بلغه هو
ودفع من أجله ثمناً غالياً فاحش الغلاء .. عندما أراد طه حسين أن يصور
لابنته أن وراء عظمة أبيها ، وصورته الجميلة المشرقة ، ورغد العيش ، ويسر
المعيشة قصة كفاح تحمل فيها الجوع والبرد والحر وكل ألوان البؤس قال
متحدثاً عن نفسه :

« عرفت فى الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى
دروس العلم فى الأزهر ، إن كان فى ذلك الوقت لصبى جدد وعلم . كان
نحيفاً شاحب اللون مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، تقتحمه
العين اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته الذى استجال بياضها إلى سواد
قاتم ، وإلى هذا القميص الذى يبين من تحت عباءته ، وقد اتخذ ألواناً

مختلفة تقتحمه من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفي نعليه البالييتين المرقعتين ، تقتحمه العين في هذا كله ؛ ولكنها تبتسم حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف ، واضح الجبين مبتسم الشجر مسرعا مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلّمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين .

ويقول : « كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته ، وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانا خاصة يمتاز من مكان إخوته وأخواته . أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ ، الحق أنه لا يتبين ذلك إلا في غموض وإبهام ، والحق أنه لا يستطيع أن يحكم في ذلك حكما صادقا ، كان يحس من أمه رحمة ورافة ، وكان يجد من أبيه ليئا ورفقا .

وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له ، ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرافة من جانب أمه شيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى ، وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الإهمال أيضا ، والازورار من وقت لآخر .

وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئا من الإشفاق مشوبًا بشيء من الازدراء .

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ، فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلا ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون مالا يستطيع ، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له ، وأحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه .

وكان ذلك يحفظه ؛ ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن صامت عميق ، ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى .

هكذا تحدث عميد الأدب العربى الراحل الدكتور طه حسين عن نفسه ، فى بلاغة شديدة ، وفصاحة بليغة ، وكيف اكتشف ، وهو لم يزل يتفتح لتوه للحياة أنه أعمى لا يستطيع أن يرى ما يراه الآخرون من حوله .

وقد كان طه حسين صادقا فى وصف ما لقيه فى طفولته من متاعب ومصاعب لا حصر لها جعلته يحرم حتى على نفسه ألوان اللعب ، والعبث ، وكل ما يكلفه عناء أو يعرضه للضحك أو الإشفاق ؛ لذا كان دائما يعزل نفسه عن باقى أقرانه ، ويتحى جانبا ليلعب وحده دون أنيس أو جليس .

ولكن شيئا واحدا كان يشد إليه طه الصغير ، وكان يملأ عليه حياته الطفولية الوداعة .. إنه إنشاد الشاعر ، وما يشتمل عليه من قصص خيالية ، وملاحم بطولية بعضها واقعى والآخر من بنات أفكار ، وخیالات منشده ، كما كان صاحبنا يعشق الاستماع إلى أحاديث أبيه مع أصحابه التى كانت غالبا ما تدور حول قصص الغزوات والفتوحات ، وأخبار عنتره والظاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنساک الصالحين .

وكما لعبت القصص والحكايات والأغانى والأناشيد الصوفية دورا فى حياة الصغير الذى كان يعرض فقدان بصره ، برهافة سمعه ، وقوة بصيرته ، وشفافية قلبه ، لعب الكتاب دورا عظيما كان له أبلغ الأثر فيما بعد فى تطور وارتقاء فكر وثقافة طه حسين .

فقد استطاع الفقيد الراحل بمساعدة الكُتَّاب أن يحفظ - وهو طفل لم يتجاوز التاسعة من عمره - القرآن كله ، وكان لوالده فضل كبير ، ولكن هذا

الفضل كان نتيجة لما يراه في الصغير من حب للعلم والمعرفة ، وإقبال على استيعاب كل ما يعرض عليه الأمر الذي دفعه (الأب) إلى مواصلة دعمه ومساندته لميل الغلام للعلم والمعرفة ، وتحفيزه على الاستمرار والتقدم .

ومما أن انتهى الصبى الضريع من حفظ القرآن حتى سئم الكتاب والشيخ ، وأخذ قلبه يتعلق بالقاهرة ، وبصفه خاصة الأزهر الشريف ، وشرعت نفسه تشوق إلى الالتحاق بهذا الصرح الكبير ، وظل ينتظر بفارغ الصبر عودة أخيه الأزهرى من القاهرة لكى يصطحبه حال رجوعه إليها .

ولكن أخيه أشار عليه بأن يبقى بالقرية لمدة عام آخر يستعد فيه جيدا للأزهر ، بأن يتعلم أصول الفقه ، وبعضا من الشعر وكل ألفية ابن مالك ، وتم له ما أراد .

وانطلق ابن القرية المتعطش للعلم والمعرفة إلى المدينة ، حيث الأزهر الشريف ، ينهل من العلم ، ويغترف من المعرفة على أيدي كبار العلماء ، والشيخوخ الذين كانوا أعلاما في عصرهم .

وقد كانت دراسة طه حسين بالأزهر شاقة وعسيرة وكم انتقد الشيخ الجليل الأزهر فيما بعد خاصة وأن التعليم بعد فترة فيه يصبح هامدا بلا حراك فلا إضافة ولا تجديد .

وقد عرف طه حسين أن بعض الطلبة من أبناء الأزهر يعبرون البحر إلى أوروبا في بعثات علمية ؛ ولكن الأمر ينطوى على وساطات ، وشفاعات ، وهو لا يملك سوى القليل ، ويعتمد على ما يقدمه إليه الأزهر من طعام وكتب مجانية .

ومع ذلك ، فقد جد الشاب الضرير ، واجتهد حتى أصبح علما بين رفاقه من طلاب العلم ، كما أجاد اللغة الفرنسية ، وبلغت عظمة ابن القرية الدرجة ، التي لم نجد إدارة الأزهر مناصبا من إيفاده إلى فرنسا .

وهناك تحمل طه حسين الكثير ، وعانى الغربة ، وقاسى فقدان الأهل والوطن ، ومع ذلك استطاع بعد عامين أن يحقق قدرا عظيما من النجاح ، خاصة بعد أن التقى مع شابة فرنسية جميلة وراقية ، عطوف ، وحنونة سرعان ما أحبته وأحبها وأصبحت رفيقته في العلم وفي الحياة فيما بعد عندما تزوجا .

وعندما عاد صاحبتنا إلى مصر لا ليجلس داخل الأزهر ، أو يكون أستاذا فقط في الجامعة وإنما ليدخل غمار الحياة السياسية والاجتماعية العاصفة فأخذ يخاصم في السياسة ، ويحارب من أجل الإصلاح الاجتماعى ، ويناضل من أجل تحرير الفكر العربى ، كما كان له دور كبير فى تنقية المناهج الدراسية فى الأدب والتاريخ ، ونقل بعض المناهج الحديثة من الغرب .

ولعل صراحة وجراة وإصرار طه حسين على مواقفه الوطنية ، وخاصة من القضايا الحساسة والشائكة فى بلد يحكمه الملك والإنجليز ، ويعانى الناس فيه أوضاعاً فى غاية الظلم والذل والهوان .. كل هذا أدى إلى إقصائه عن كلية الآداب حيث كان عميدها ، ومن هنا أطلق عليه المثقفون لقب « عميد الأدب العربى » لأن فيها خير تعويض عن عمادة الآداب ، كما أنها مرتبة أسمى ، ومكانة أعلى يستحقها الأديب والمفكر والمصلح الاجتماعى الكبير .

وما لبث طه حسين بعد ذلك أن عين مستشاراً فنياً لوزارة المعارف ، ثم تولى الوزارة قبل قيام الثورة .

وقد قدم الفقيه العظيم للمكتبة العربية كتباً نقدية ، وأعمالاً روائية وقصصية قلما يجود علينا الزمان بمثلها ، فمن أعماله الخالدة : « دع الكروان » ، « الوعد الحق » ، « شجرة البؤس » ، « الملعبون في الأرض » « الأيام » ، « أدب ونقد » ، « حديث الأربعاء » ، « العصر الجاهلي وعشرات القصص والروايات والكتب النقدية الأخرى التى أثرت حيات الثقافية أياً لإثراء .

كما ترجمت معظم أعمال هذا الأديب العملاق إلى عدد من لغات العالم كما مثل هو مصر في كثير من المؤتمرات الدولية ، وحصل على أرفع الأوسمة وأكبر اليناشين ، وتم ترشيحه أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل ، إلا أن الغرب لا يكن وقتذاك ليقدمها لأديب عربى لأسباب كثيرة لا تخفى على أحد ، وفي مقدمتها الهيمنة الصهيونية المطلقة وقتذاك على كافة المؤسسات الإعلامية والثقافية والعلمية في أوروبا .

وقد كتب عميد الأدب العربى الراحل ذات مرة متحدثاً عن مذهبه في الحياة ، ومصوراً ما لاقى من الصعاب ، وموضحاً أسلحته التى استطاع أن يقهر بها أقسى الظروف ، ويتغلب بها على أشد الصعاب ، وقد رأينا أن نسوق للقارئ ما قاله الراحل العظيم عن نفسه ، ومذهبه .

كتب طه حسين تحت عنوان « حب للمعرفة وصبر على المكروه » يقول : « أكاد أعتقد أنى لم أعرف مذهبي في الحياة إلا شيئاً فشيئاً ؛ لأن هذا المذهب نفسه لم يتكون إلا قليلاً قليلاً فرضته على ظروف الحياة وهى التى استخرجته من أعماق طبيعتى استخراجاً بعد أن كان كامناً فيها كمون النار فى العود كما يقول الشاعر القديم .

وأول ما استكشف من هذا المذهب خصلة أرى أنها قد صحبتني منذ الصبا وهي : الظمأ الشديد إلى المعرفة . الظمأ الذى لا يطفئه اكتساب العلم ، وإنما يزيده قوة وشدة والتهابا . فأنا لا أحصل نصيبا من المعرفة إلا أغرائنى بأن أحصل شيئا آخر أبعد منه مدى وأشد منه عمقا ، وليس فى هذا نفسه شيء من الغرابة ، فإذا كانت حاجة من عاش لا تنقضى ، فحاجة من ذاق المعرفة أشد الحاجات وأعظمها إغراء بالتزويد منها والإمعان فيها .

وأكبر الظن أن هذه الآفة التى ألت بى فى أول الصبا هى التى أذكت فى نفس هذه الجذوة ، فهى قد صرفتنى عن كثير مما يشغل المبصرون وحرمت على ألواننا من جدهم ولعبهم ، ويسرتنى لما خلقت له من الدرس والتحصيل انفق فيهما من القوة والجهد والنشاط والفراغ ما ينفقه غيرى فيما يضطربون فيه وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها ، وما كلفت بمثل من الأمثال السائرة قط كما كلفت بهذا المثل القديم « لا بد مما ليس منه بد » ، وما أحببت بيتا من الشعر القديم كله كما أحببت بيت أبى العلاء المعرى :

وهل يابق الإنسان من ملك ربه

فيخرج من أرض له ساء

لم يكن بى إذن من أن أوطن نفسى على الفراغ لما أحسنه ، أو لما ينبغى أن أحسنه من الدرس والتحصيل ما وجدت إليهما سبيلا ، وقد فعلت أو حاولت أن أفعل فى آخر الصبا وأول الشباب ؛ ولكن ما أسرع ما رأيت وسائل الدرس والتحصيل عسيرة على أشد العسر ، فقد كنت مستطيعا بغيرى - كما يقول أبو العلاء - « لا أذهب ولا أجيء ، ولا أغدو ولا أروح ،

ولا أقرأ ولا أتعلم إلا أن يعيننى على ذلك معين ، وكان طريقى إلى الدرة والتحصيل فى تلك الأوقات ضيق محدود بدأبى فى الأزهر وانتهى بى إلى الأزهر .

ويقول طه حسين : « وكان على أن أنفق العمر فى هذا المقدار المحد من العلم الذى كان الأزهريون يبدأون منه ويعيدون ، ولا يضيفون إليه وقت شيئاً ولا يستطيعون أن يضيفوا إليه شيئاً .

وهنا ظهرت خصلة ثانية من هذه الخصال التى ألفت مذهبى الحياة ، وهى : الصبر والمغالبة واحتمال المكروه ما وسعنى احتماله ، فقه صبرت وصابرت واحتملت من ألوان المشقة فى الأزهر ما رضىت عنه ، وسخطت عليه ؛ ولكن رأيتنى مدفوعاً إلى شىء من المغامرة لم يكن يُدفعُ إلّ أمثالى فى هذه الأيام . فما لى لا اختلف مع بعض الأصدقاء إلى دار الكتبة لأقرأ فيها من العلم ما لم يكن الأزهر يسيغه ، ولم أكد استكشف القدماء من العرب وآدابهم حتى صرفت إليهما عن الأزهر صرفاً ، رأيتنى ثابراً على الأزهر ودروسه ثورة جامحة لم أحسب لعواقبها حساباً ، ثم لا أكاد اتص بالجامعة التى أنشئت فى تلك الأيام حتى أكلف بها كان يُلقى فيها من در أشد الكلف .

وإذا خصلة ثالثة من مذهبى فى الحياة ، وهى : خصلة التصميم : اقتحام العقبات التى تعترض سبيلى إلى العلم مهما تكن أو أموت دونه وإذناً أنا مصمم على أن أحصل علم الجامعة ثم أعبر البحر إلى أوربا لأطالع العلم هناك .

ثم يمضى طه حسين فى شرح مذهبه فى الحياة وخصاله حتى يقول :
« ولكن خصلة أخرى من خصال مذهبى فى الحياة تكشفها لى الظروف
الجديدة التى عشت فيها منذ عدت إلى مصر ، وهى : خصلة الصراحة
والجهر بالحق مهما يكن مرا ، والنضال فى سبيله مهما ثقل هذا النضال ، ومهما
تكن عواقبه . »

وكذلك رأيتنى أخاصم وأثير الخصومات ، وأحفظ الصدور وأعزى
الناس بنفسى وألقى من ذلك الجهد والمشقة والغضب فى وقت واحد من
جانب البرلمان وصاحب القصر الملكى ولكننى لا أحجم ولا أتردد وإنما
تزيدنى المحنة إقداما وتصميماً .

ثم أمضى فيما أنا فيه من الصبر والتصميم والمجاهرة بما أرى أنه الحق
غير حافل بسخط الساخطين ولا رضى السراضين حتى يبلغ الأمر غايته ،
فأقضى عن الجامعة ، وأحارب فى الرزق ، وأتلقى ألوان النذير فلا يقل ذلك
من عزمى وإنما يزيده مضاءً وتصميماً ، وكذلك غالبت المصاعب والعقبات
على اختلاف مصادرها ، وعلى اختلاف ألوانها وطبيعتها وأتيح لى التغلب
عليها آخر الأمر ولو إلى حين .

وهنا تظهر الخصلة الأخيرة التى عرفتها من مذهبى فى الحياة إلى الآن ،
وهى : حبى لأن أرى الناس جميعاً مثلى فى الشوق إلى العلم والاستزادة منه
والوصول إليه دون أن يجدوا مثل ما وجدت من المشقة ودون أن يمتحنوا
بمثل ما امتحنت به من ضروب العناء .

ويؤكد عميد الأدب العربى فى حديثه عن مذهبه فى الحياة الذى نشره -
كما ذكرنا آنفاً - فى كتاب « مذهبى » الذى أشرف بنفسه على إعدادة وضم

عدة مقالات كتبها أصحابها من نجوم المجتمع في شتى المجالات عن
مذاهبيهم .. يؤكد طه حسين أن خصاله هذه كانت وراء السعادة التي
نعمت بها نفسه ، وسر الرضاء الذي يملؤه عما قام به من أعمال في حياته ،
ومبعث راحة الضمير التي كان يأنس إليها .

□○□○□



شارلي شابلن

عبقرية وراءها مأساة !!

لم يبلغ أحد ما بلغه هو من شهرة ، ولم يصل أى فنان فى العالم ما وصل إليه هو من نجاح سابق لم يسبق له مثيل . هو الذى إذا أراد أحد أن يؤرخ للسينما فلا بد أن يمر من تحت عباؤه ، وهو الذى إذا أراد أحد أن يتجاهله ، فمعنى ذلك أنه يفرغ هذا الفن العظيم من مضمونه ويحتثه من جذوره .

إنه شارلى شابلن هذا الممثل ، والمخرج العظيم الذى فاقت عظمته الفنية ، وعبقريته السينمائية ، وقدراته ومواهبه التمثيلية كل الحدود « إنه الذى قال أحد النقاد عليه ذات مرة » شابلن هو الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يقدم فيلما هو مخرجه وكاتب قصته وبطله الوحيد . أى فيلم يعتمد على شخص واحد هو الوحيد الذى يظهر فيه ويصنعه بيديه .. إنه شابلن العظيم » .

والمتتبع لأفلام شابلن العظيمة « أضواء المدينة » ، « العصور الحديثة » ، « مسيو فردو » و « الدكتاتور العظيم هتلر » و « ملك نيويورك » وغيرها يقف مبهورا أمام عظمة هذا العملاق وقدرته الفزة على التمثيل والإخراج والتأليف الموسيقى والغنائى .

ولم يكن شابلن مجرد فنانا عظيما وإنما كان فيلسوفا عظيما أيضا .. انظر إليه وهو يقول : الإنسان يحاول أن يسعد نفسه فلا يحظى إلا بالتعاسة ، ولكن من هذه التعاسة يتولد الضحك . ربما بسبب فظاعة المأساة ، ربما بسبب تصارع الأضداد ، ربما بسبب تجاوز التعاسة لحد الحزن ، حيث يصبح الضحك هو البديل المنطقى .. ربما أيضا ، ويبدو أن شابلن كان يتحدث

عن نفسه ومأساته الشخصية عندما كان يردد هذه الكلمات الموجهة التي لا تصدر إلا عن نفس مضطربة ، ووجدان متأجج ، وعقلية قهرها الألم .

والحقيقة أن وراء هذا النجم اللامع في سماء الفن والذي لم يزل نوره يسطع في ليالي هوليسود حتى يومنا هذا .. وراء هذا العملاق مأساة إنسانية بطلها الوحيد هو الفقر .. ، ريباً نلمح « شخصاً أخرى » في هذه المأساة كالبرؤس ، والشقاء ، وتعاسة الحظ في البداية إلا أن الفقر يبقى هو البطل الرئيسى الذى يلتف بقوة حول عنق شابلن الطفل حتى كاد يخنق .

وقصة شابلن هى قصة إنسان عظيم استطاع تحويل الهزيمة إلى نصر ساحق ، والشقاء إلى سعادة ، والفقر المدقع إلى غنى فاحش . إنها قصة الإنسان الذى انهالت عليه الأحجار فخرج من تحتها شاخاً متحدياً كل القوى التى اجتمعت للقضاء عليه .

يقول شابلن عن نفسه : إن الرسام العظيم « بيكاسو » فى حياته مرحلة تعيسة اسمها « المرحلة الزرقاء » أما هو فقد بدأت مع ولادته مرحلة اسمها المرحلة الرمادية .. مرحلة فى لون الضباب والهباب .. فى لون اليأس والفقر والبرد والجوع .

فقد ولد شارل شابلن لأب من أصل فرنسى ، وأم غجرية سليطة اللسان لا تتوقف عن الثرثرة ، والسباب طيلة فترة تواجدها فى البيت .

أما والده فكان ممثلاً من الدرجة الثالثة ، ورغم مواهبه ، وإمكاناته إلا أن شخصيته غير السوية ، وأخلاقه السيئة كانت سبباً فى عدم تقدمه ، كما أنه كان مدمناً للخمر والنساء مقامراً رغم دخله المحدود .

وتقول أمه ملخصة مأساة أبيه : « إنه يشبه نابليون » عقلية جبارة ،
وغرور لا حد له ، وفقر وخطرة .

ولأن الأب كان غائبا عن البيت معظم الأيام وقلما يخرج من جيبه مليما
واحدا يدفع الجوع أو البرد عن الصغير وأمه في ليالى الشتاء القارسة ، فقد
اضطرت أم شابلن إلى استغلال مواهبها فى الغناء لكسب بعض ما يعين على
الحياة .

ولكن الأمور لم تستقم حتى مع عمل الأم فبعد عام من ولادة شابلن ،
انفصلت أمه عن أبيه لاستحالة الحياة بينهما ، وأعقبت هذا فترة ركود وأزمة
اقتصادية طاحنة ، وتوقفت الأم فترة عن العمل ، وبدأت رحلة الأسرة
الصغيرة مع الشقاء ، والبؤس والجوع والبرد والحرمان .

وتركت الأم شقتها إلى غرفة صغيرة مشتركة مع أسرة أخرى لعجزها عن
دفع الإيجار للشقة ، وكم كانت تبيت الليل تبكى هى وصغيرها على حالهما ،
وهكذا أصبح شابلن يتيمًا والده العريد على قيد الحياة .

ومن الأحداث التى دفعت شابلن مبكرا إلى الساحة ومهدت لاحترافه
الفن بعد ذلك ، فهو ما جرى ذات يوم عندما صحبتته أمه معها إلى المسرح
المتواضع الذى كانت تغنى عليه للسكارى ، والمخدرين ، ففى ذلك اليوم ،
وبينما شابلن يقف وراء الكواليس يقلد أمه وهى تتمايل وتتلوى وتغنى فى
ضيق ، وزهق واضح ، أعجب به صاحب المسرح ودفع به فى نفس الليلة
ليقلد أمه .

ورغم غرابة الموقف ، ورغم أن شابلن كانت ترتعد أوصاله إلا أنه أظهر
خفة ظل لا مثيل لها حتى إن الناس ألقت عليه نقودا كثيرة .

والطريف أن شابلن كان كلما ألقى عليه نقودا أوقف عملية الغناء والتقليد ليجمعها ثم يواصل الأمر الذى جعل الناس تضحك أكثر وأكثر .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد خشى صاحب المسرح أن يستبقى الصغير شابلن النقود لنفسه ثم يفر هاربا عقب العرض ، فخرج على المسرح يجمع النقود ، فهجم عليه شابلن وأمسك بتلابيبه حتى تأكد أنه أعطى جميع النقود لأمه ثم واصل الغناء .

ومن هنا بدأ شابلن يظهر مواهبه وقدراته التمثيلية الفذة وخاصة في مجال الكوميديا ، وأصبح يخرج على المسرح كل ليلة يقدم اسكتشات ضاحكة ومواقف كوميدية .

ولم تكن أمه راضية عن عمل الصغير الذى لم يتجاوز التاسعة بالفن خوفا من أن ينتهى مصيره كما انتهى إليه مصير والده ، وحاولت منعه مرارا ، وكانت تقول له : « سوف تتحول إلى الخمر والنساء وتتسول إن شاء الله مثل أبيك » ، وظل شابلن على هذه الحال حتى أصبح عضوا أساسيا فى الفرقة المتواضعة .

كما قام شابلن بتأليف « النكت » أو تحوير ، وإدخال تعديلات على « النكت » المعروفة ، وخاصة السياسية لتجعل الناس ترقص فى مقاعدها ، ومع هذه الفرقة المتواضعة التى تعمل بها أمه سافر إلى فرنسا ثم إلى أمريكا ، وهناك كانت الصدمة الأولى .

فقد اكتشف شابلن فى نيويورك منذ أول عرض له أن الأمريكين لا يضحكون للنكات التى يرقص لها الإنجليز واكتشف أنه على الفنان أن يدرس الشعب الأمريكى ليعرف كيف يتعامل معه أو يقدم له فنا .

وبالفعل بدأ شابلن يخطط أولى خطواته بنجاح وسرعان ما انتقل إلى هوليوود ، وهناك ابتسم له الحظ حيث عمل مؤلفا ، ثم مساعد مخرج ، ثم مخرجا .

وبدأت أولى إنجازات العظيم شابلن التاريخية ، وأعظم بصماته الواضحة على هذا الفن السابع . فقد استطاع شابلن أن يرتقى بالسينما الصامتة ، ويقدم تحفا نادرة لا تزال نشاهدها ونسعد من أعماق قلوبنا حتى الآن ، وتمكن شابلن من توظيف الحركة فكان أروع من استخدم لغة الحركة السينمائية .

وقد ابتكر شابلن لنفسه حركته التاريخية المشهورة التي كانت تماثل حركة « الروبوت » أو الإنسان الآلى الموجود بيننا اليوم .

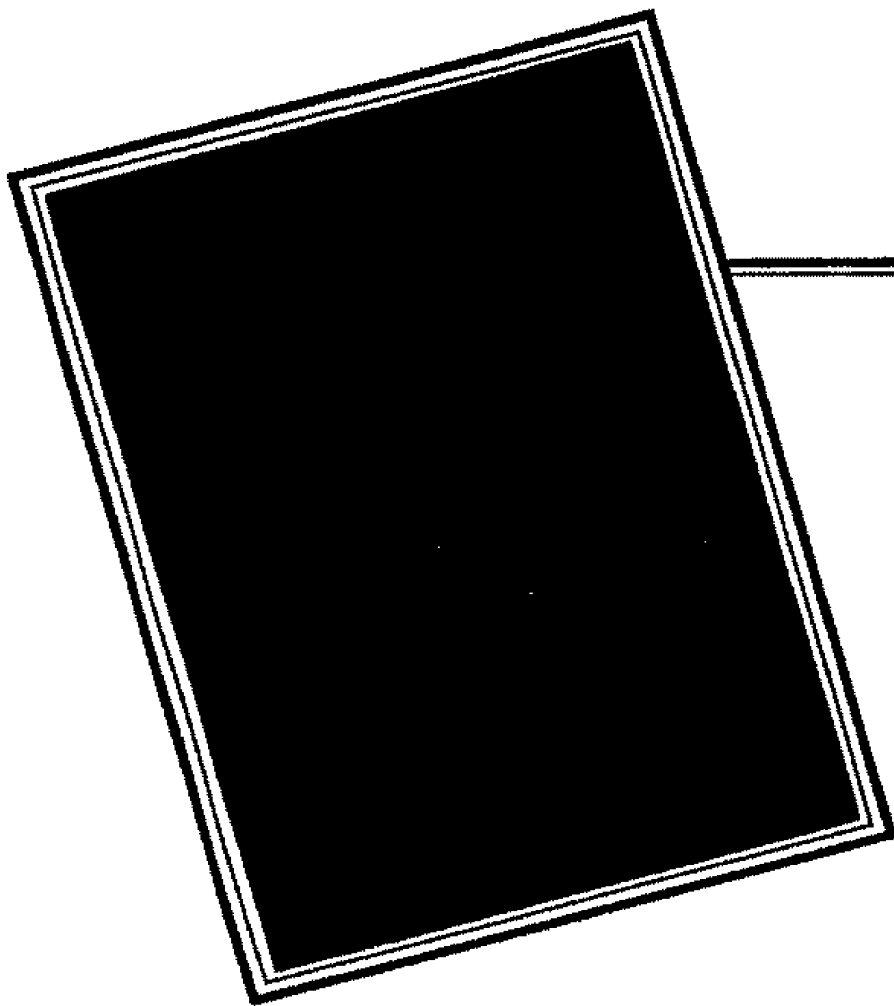
وقد تزوج شابلن أربع مرات كانت آخرهن ابنة الأديب الأمريكى العملاق « يوجيه أونيل » وقد فاز شابلن بجائزتي أوسكار الأولى فى بداية الخمسينات وثالثة عام ١٩٧٣ .

ولم يكن شابلن مجرد فنان عظيم ، وإنما كان مفكرا أيضا ، وكان شجاعا ، وجريئا ، فقد تجرأ العملاق حتى على المجتمع الأمريكى الذى يقيم فيه ، ويرتبط فيه بكل أعماله ، ومشروعاته .. انتقد أوضاعا كثيرة ، وثار على أوضاع كثيرة .

ولم يسلم شابلن من الأذى فقد دفع ثمن شجاعته ، وإيمانه برسالة الفن غاليا حيث اتحد مع بعض الأمريكيين المتعصبين بمعاداة أمريكا ، ولم تجد السلطات هناك مقرا من طرده بعد أن ثارت بعض الجماهير عليه بفعل ما نشرته الصحف على لسان منتقديه .

واتجه شابلن إلى سويسرا وظل هناك عشرين عاما حتى عام ١٩٧٣
واتجه إلى أمريكا . ليبقى هناك حتى يوافيه الأجل في عام ١٩٧٧ ، وهو في
كامل صحته وحيويته ، حتى إن الأطباء قالوا : إنه مات من الصحة
التي يبدو أنها تدفقت فجأة بقوة فكانت أقوى من حجمه الضئيل فمات
محترقا بها .





عباس محمود العقاد
أديب الغلاصة وفيلسوف الأدباء

كان أبوه مجرد موظف متواضع بإدارة المحفوظات بمديرية أسوان .
كان بالكاد يجد ما يعينه هو وأسرته على تكاليف المعيشة وأعباء الحياة ،
وكان كل ما يتقاضاه هو ستة جنيهاً فقط في مطلع كل شهر ، ولم يكن له
أى مورد آخر للرزق ، ومع ذلك فقد كان الرجل حريصاً ، دقيقاً ،
ومتحفظاً للدرجة التى كان يحسده عليها أقرانه لأنه يستطيع تدبير أمور
معيشته ، وفى حدود راتبه الضعيف بشىء من الحكمة . أما أمه فقد كانت
سيدة فاضلة طيبة القلب ليس لديها ما يشغلها عن رعاية أطفالها ، ومنحهم
كل ما تملك من حب وحنان وأمومة .

بين أحضان هذه الأسرة ، وفى صعيد مصر الدافئ ولد المفكر والأديب
العربى الكبير عباس محمود العقاد أحد عظماء عصره الذين أصبحوا أعلاماً
مضيئة فى سماء مصر والعرب والأمة الإسلامية جمعاء .

ومنذ اللحظة الأولى لميلاد العقاد فى الثامن والعشرين من يونيو عام
١٨٨٩ ، وعلامات النبوغ والذكاء تبدو عليه بوضوح ، وما أن بدأ ينمو
ويكبر حتى أدرك أبواه أنه طفل موهوب ، ذو عقلية تفوق ما عليه أقرانه ،
فهو حاد الذكاء ، شديد النظرات الفاحصة ، عميق التفكير ، قوى الإدراك .

وأمام ما أظهر الصغير من مواهب وقدرات قرر الأبوان إنفاق آخر مليم
معهما حتى تتم رعاية الصغير على أفضل وجه ممكن ، رغم أن « العين بصيرة
- كما يقولون - والأيد قصيرة » .

وشب صاحبنا ، معتداً بنفسه ، واثقا في قدراته ، معجبا بقدراته ، فخ
بملكاته .

وفي الخامسة عشرة من عمره انتقلت أسرة العقاد إلى القاهرة . وك
العقاد لا يحمل حتى ذلك الوقت سوى الابتدائية ، وبدلاً من استكم
دراسته فضل الاكتفاء بهذا لقدر المتواضع وتعليم نفسه بنفسه حتى يو
لأسرته ما يدفعونه له ، ولا يكون عبثاً ثقيلاً على مالية أبيه المتواضعة للغاية
وبدلاً من أن يكمل العقاد تعليمه ، وبدلاً من أن يلتحق بوظيفة
حكومية أخذ يتفرغ للقراءة والكتابة ، ويحاول أن يحيا مما تدره عليه ، وعاد
منهما ولهما حتى غاية عمره .

والحقيقة أن العقاد كان موسوعة لا يمكن أن تتسع عدة كتب للحديد
عنها ، وكان عبقرية لا يمكن أن تفيها الكلمات حقها . وقد شغل الناس
عصره عن عظماء كثيرين كان على الساحة معه ، حتى إنهم أحياناً لم يكو
يسمعوا سواه ، ولا يقرأوا نقداً لسواه .

كان العقاد مفكراً جاداً ، وكاتباً متحفظاً ، وأديباً ملتزماً ، وناقداً متشد
جعل من قلمه قذيفة ضد كل من يجيد عن قيم الحق والعدل والجمال .
وقد فاقته شهرة العقاد كمفكر وناقد وكاتب شهدته كأديب وشاعر
ورغم أن عبقرياته الرائعة « كعبقرية محمد » و « عبقرية خالد » و « عبقر
عمر » وغيرها قد زاع صيتها أكثر من دواوينه إلا أن شعره كان رائع
غاية الروعة .

وقدم العقاد للمكتبة العربية ٨٥ كتاباً في الفن والأدب والعلم والمعارف
الإنسانية والإسلامية إضافة إلى دواوينه الرائعة « يقظة الصباح » و « وح
الأربعين » و « أشجان الليل » و « أعاصير مغرب » .

وكما كانت أعمال العقاد النقدية علامة مضيئة في سماء الأدب ، كانت أعماله الأدبية والشعرية أيضا بصمة واضحة على الساحة فكانت جيدة المضمون ، عظيمة الموضوع ، سليمة الرؤية ، متماسكة البنيان . كما كان أسلوبه متميزا قويا رصينا يذكرنا بالعرب الأقدمين .

ويمكن أيضا أن نلمس في شعر العقاد أناشيد عذبة تفيض بالأحاسيس والمشاعر الصادقة التي تعبر عن وجدان صاحبها ، كما كانت تغلب عليه النزعة الروحية .

وقد أسس العقاد مع عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري مدرسة « الديوان » ، وهي إحدى تيارات التجديد في الشعر العربي الحديث بعد ما وصل إليه حال الشعر من محاكاة وتقليد ، وتحولت عملية البعث والإحياء إلى استغراق شبه كامل في السير على نهج القدماء رغم اختلاف البيئة والموضوعات .

وقد أقام العقاد صالونا أدبيا يُعقد كل يوم جمعه ، ويضم نجوم الفن والأدب والثقافة ويلقى فيه الجديد من الشعر ، وتناقش فيه مختلف القضايا الفكرية والسياسية والأدبية في عصره .

وقد كان العقاد زعيما وطنيا ، ومناضلا سياسيا أيضا ، وقد وطد علاقته بسعد زغلول زعيم الأمة ، ومؤسسى حزب الوفد أعظم التنظيمات السياسية في تاريخ مصر الذي لم يكن يضم سوى النبهاء ، والمثقفين من أبناء الأمة بغض النظر عن دراستهم أو تعليمهم ، فكان يضم كل جموع الشعب وكافة طوائفه .

وقد أسهم العقاد بكتاباته أيضا في تحريك ثورة ١٩١٩ ، كما كان صديقا للزعيم الوطنى العظيم مصطفى النحاس وحارب من أجل الدستور .

ومن مواقف العقاد الوطنية الشهيرة جراته في مهاجمة الملك فؤاد وفضحه أمام الشعب وتحقير شأنه أمام سطوة المصريين البسطاء القادرين على إسقاطه ، وقال فيه العقاد قولته الشهيرة التي دخل بسببها السجن قرابة العام « إن شعبنا قادر على أكبر رأس يتعرض لحرياته » .

وقد دافع العقاد عن الإسلام دفاعا مجيدا في مقالته وفي كتبه « حقائق الإسلام وأباطيله » ، « ما يقال عن الإسلام » و « مطلع النور » ، وقد حاول العقاد جاهدا صياغة أيديولوجية إسلامية يواجه بها المسلمون المذاهب والفلسفات الواردة من بيئات غير بيئاتنا ، وثقافات غير ثقافتنا كالاشراف والراسمالية .

وقد تناول العقاد قضايا جادة وطرق موضوعات ذات طبيعة حساسة ومهاجم التخلف والركود وأوضح موقف الدين القيم من الإنسان والقدر والشيطان والعبادة والمرأة .

ومن أعمال العقاد الهادفة في هذا الصدد « الإنسان في القرآن » و « المرأ في القرآن » و « الفلسفة القرآنية » و « الله » حيث طاف بأفكار البشير القديمة والحديثة عن العقائد فألم بها وناقشها ، كما تجول بين الديانات السماوية حتى انتهى إلى الإسلام موضحا عقيدته في عمق ودقة ، ومبين ما فيه من سمو وصدق .

وللعقاد موقف من قضية الأخلاق التي لطالما شغل وعنى بها الفلاسفة والمفكرين على مر العصور وكان - رحمه الله - يرى أن الأخلاق تعتمد على الضمير الذي قوامه الصراحة والوفاء والإنهاء والسلام .

كما كان العقاد يرى أن الأخلاق لا تعنى « الأنانية » ، وإنما تعنى « الغيرية » .

وهكذا ظل العقاد حتى آخر لحظة من حياته التى جعلها وقفاً على التحصيل والمعرفة ، والكتابة والتأليف والنقد حتى اثرى حياتنا الفكرية والثقافية فى كل لون ، وضرب ولعل هذا هو الذى دفع الفيلسوف والمفكر الراحل العظيم الدكتور زكى نجيب محمود إلى أن يُطلق عليه « أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء » . أو قال عنه الأديب الراحل محمود عبد القادر المازنى « بحر بلا انتهاء » .

لقد رحل العقاد فى الثالث عشر من مارس عام ألف وتسعمائة واثنين وستين ولكنه لا يزال حياً نهتدى به جيلاً بعد جيل ، ورحل الرجل الذى كان عصامياً فى حياته ، اعتمد على جهده ، ولم يعتمد على جهد غيره ، وكان عصامياً فى ثقافته وأدبه وعلمه ، فلم يعتمد على مدرسة أو جامعة وإنما علم نفسه بنفسه . لقد كان الراحل أكثر من عظيم ظهر فى عصر العظماء الكبار رغم أنه بدأ من تحت الصفر !!





غاندى

لسان حال الضمير الانسانى

الحب بين الأفراد هو أكسير الحياة ، كما أنه وقود التقدم ، فأنا أعتقد أنى أصل إلى أقصى ذروتى باندماج نفسى فى نفوس الآخرين ، وليس حبى لرفاقى متوقفاً على اتفاقهم معى أو اتباعهم لى ، إذ أنى بتسم لمن يعارضنى ، فعلم الولاء لأرائى هوّة يسهل على عبورها بالمودة والحب .

هكذا كتب « المهاتما غاندى » ذات يوم عن فلسفته فى حياته والتي جعلت منه رمزاً للسمو الإنسانى فى أعلى صورة ، ونموذجاً للفكر المستنير فى أوج عظمته ، ومثالاً للحرب بالسلام فى قمة تأثيرها وفعاليتها .

غاندى هو زعيم من نوع خاص ، إنه لم يلجأ إلى السلاح ولم يطلق رصاصة واحدة على أعدائه ، وإنما ابتدع لنفسه ولوطنه أسلوباً فريداً من نوعه ، لم يألفه التاريخ من قبل ، أسلوباً يعتمد على إلحاق الخير بالآخرين بدلاً من الشر ، حتى ولو كان الآخر هو العدو ، ورغم عدم تصور مثل هذه المعادلة الإنسانية الغربية إلا أن غاندى طبقها بنجاح ، وحرر بها ثانى أكبر شعوب العالم بعد الصين .. بلاده الهند .

يقول غاندى : « الحضارة كما أعتقد هى قبول بل تشجيع أوجه الاختلاف ، وبذا تصبح الحضارة تعبيراً مرادفاً للديمقراطية . فالشدة والعنف والضغط والإكراه كلها على النقيض من الحضارة والديمقراطية ، والشدة تولد الخوف ، والخوف يخلق الرجل الوضع ، وقد حاولت طول حياتى أن أقصى الخوف لأنى إذا خفت لم أعد حراً » .

وأعتقد أن الخوف يلازم الغنى ، فقلب المرء حيث توجد أمتعته
الدنيوية ، ولست أقصد بالأمته الدنيوية المال والعقار فحسب ،
بل السلطة والصيت ، وحتى جسدى هذا ، وأنى مهما قدرت لهذه من قيمة
فلا أتردد فى التنازل عنها ثمناً لمبادئى ، والتهجم على مبادئى هو إذن كفيل
بأن يجعلنى أرتد وأتدلل ، ولست ممن يعارضون الغنى ولكن من معارضى
الغنى الذى يجعل المرء عبداً وليس لأى شىء أملكه أن يعترض أعمالى ،
وإنى أصوم إذا كان ما أصوم من أجله أهم عندى من الحياة نفسها ، وأزهد
لأن ما أزهد فيه يهينى متعة مما أحصل عليها من وراء الزهد .

وعندما قُتِلَ غاندى فى اليوم الثلاثين من شهر يناير عام ألف وتسعمائة
وأربعين ، وقف العالم كله حداداً على فقيد الإنسانية الذى كان ضميرها
والمحدث بلسانها ، وتحولت الهند إلى بؤرة صراع ، وأرض منازعات لا قبل
للهندود بها ، حتى انقسمت على نفسها ، وتفتتت رقعتها وتحولت إلى دول
وولايات .

ولكن من هو غاندى الذى لم يزل حديث العالم كله حتى الآن ، وكيف
صعد الرجل من أقل نقطة سلم المجد ، حتى بلغ كل هذه الشهرة ، وكل
هذا الاحترام ؟

ولد «موهان داس .ك. غاندى» فى عام ألف وثمانمائة وتسعة وستين فى
أسرة عادية متوسطة الحال لم تكن تطمح فى شىء إلا أن يكون الغلام قادراً
على أن يعول نفسه بنفسه ، ولكنه كان أكثر اهتماماً بنفسه من أبويه ، وأقوى
عزيمة ، وأشد رغبة ، وأقصى ذكاء ، مما جعله يتفوق على أقرانه ، حتى أبناء
الطبقات الغنية من أصحاب السلطان والنفوذ !

وقد كان غاندى أثناء دراسته محل إعجاب جميع أساتذته الذين استحسّوا خُلُقَه ، وأثنوا على علمه ، وأشادوا بقدرته الفذة على الحوار والإقناع وعرض وجهة نظره التى ربما كانت تختلف أحيانا مع آرائهم.

واستمر غاندى على هذه الحال حتى أصبح محامياً شاباً شديداً الحجة ، قوى الإيمان بما يتولاه من قضايا ، مستميتاً فى دفاعه عن الفقراء والمساكين الذين لا يجدون ما يقدمونه لرجال القانون حتى يرفعوا عنهم الظلم ، ويردوا عن صدورهم عدوان المحتل الغاصب الذى لم يكن جنوده يتورعون عن إطلاق الرصاص على الهنود دون وازع من رحمة أو ضمير.

وفى ذلك الوقت بدأ الناس يلتفون حول غاندى الذى أخذ يظهر كزعيم من نوع خاص ، وقائد له فلسفة خاصة ، وأسلوب متفرد لم يألفه الناس من قبل ، فقد طرح غاندى فكرة «المقاومة السلمية» أو «المقاومة السلبية» كطريق لخلاص شعبه من الاحتلال البريطانى .

كما ابتدع غاندى أسلوباً رائعاً للمقاومة يمثل تعبيراً ذاتياً عن فلسفة حياتية جديدة فى تاريخ البشر تعتمد بالدرجة الأولى على قهر النفس والذات وعلى ممارسة سياسة «اللاعنف» .

ومما زاد من قناعة غاندى بهذه المقاومة السلبية هو عمله عقب تخرجه لفترة بجنوب أفريقيا حيث شهد أسوأ عملية إبادة بشرية وإنسانية فى التاريخ ، حيث رأى المستعمر الأبيض يقتل ، ويذبح ، ويسجن ، ويصلب السكان الأصليين من السود أصحاب الأرض ، وينهب ثرواتهم ، بينما هم يقاسون الجوع والبرد والمرض والقهر والظلم .

وقد انخرط غاندى بعض الوقت مع المقاومة السوداء هناك ، وقُبِضَ عليه أكثر من مرة ، وكاد يفقد حياته أكثر من مرة بسبب مناصرته للسود المظلومين ، ووقوفه إلى جانبهم ضد المستعمرين .

لقد كان غاندى فى حياته يقود ثورة المحرومين والمستضعفين على طريقته الخاصة ، وقد أتت هذه السياسة ثمارها ، فقد حرض غاندى الهنود على مقاطعة المنتجات الإنجليزية مما جعل مصانع بريطانيا توشك على الإفلاس حيث إن الشعب الهندى كان يمثل المستهلك الرئيسى لهذه المنتجات .

كما حاول غاندى أن يفضح الاحتلال بعرض بشاعات ما يرتكبه جنوده من مذابح وحشية ، وعمليات إبادة جماعية ، وشتى صور القهر والظلم .

وما أن شعر البريطانيون بمدى ما يمثله غاندى لهم من خطر حتى أدركوا أن هذه المقاومة السلبية سلاح مؤثر يمكنه أن يقهرهم ، وأن هذه المقاومة التى كانوا يسخرون منها فى البداية قد بدأت تقلب عليهم العالم ، وتشعل فتيل ثورة لم يروا مثيلاً لها من قبل ، ولم يألّفونها فى بقية مستعمراتهم .

ومن هنا ، بدأ البريطانيون يضيقون الخناق حول غاندى ، وانتهى الأمر بإيداعه السجن هو وزوجته «كاسترى» لتشتعل نار الثورة فى الهند ، ويشور العالم كله من أجل هذا الزعيم الروحى الذى يحظى باحترام بالغ فى شتى أرجاء العمورة التى أصبح فيها علماً ونجماً ومفكراً ومصلحاً عظيماً .

وفى السجن يفقد غاندى زوجته «كاسترى» التى ماتت أثناء كفاحها معه بعد أن آمنت به كما فعل ملايين الهنود الذين وقفوا خلفه .

ويضطر البريطانيون لإطلاق سراح غاندى أمام ثورة العالم كله ،
ويواصل كفاحه ، ويضرب عن الطعام حتى يكاد يموت من أجل دعم
قضية بلاده ، وكجزء من المقاومة السلمية أو السلبية التى ابتدعها وحتى
يحافظ على يقظة وحماس ونضال أبناء وطنه .

ويظل غاندى فى مقاومته هذه حتى يحصل لشعبه على ما يريد ، وينزل
المستعمر على رغبة أصحاب الأرض ، ويمنحهم الاستقلال ، ليقرروا
مصيرهم بأنفسهم .

وهكذا دخل التاريخ أحد العظماء الذين كرسوا حياتهم لحماية الإنسان
من الظلم ، والقهر ، والبطش ، واعتمد لذلك أسلوباً لا يعتمد على سفك
الدماء ، أو إزهاق الأرواح ، وإنما على الحب وإقناع الآخر بجدوى السلام ،
وفعالية نبذ العنف ، وقد عبر غاندى عن نفسه جيداً عندما قال :

« إنى رجل عادى خاضع لما فى من مواضع الضعف ، وإذا حق لى أن
أتحدث عن نفسى فالفضل فى ذلك لتجاربى الناجحة فى الحياة فحياتى
عمل ، وأعتقد أنه يجب على أن أطبق فيها ما أؤمن به ، ولقد حاولت أن
استبعد الصراع بين ما أعتقد وما أقوله وما أفعله ، هذا هو الحق .. ولا أدعو
إلى غير ما أعمل ، ونتيجة ذلك تكامل يتولد عنه انسجام فى داخلية نفسى ،
وإذا واجهت شراً فلن أقف مكتوفاً أقلب كفاً على كفٍ معبراً عن أسف
لا أشعر به كى أخلص بذلك نفسى من تأنيب ضميرى ، بل إنى أعد نفسى
مسئولاً عما فى العالم من مساوئ إذ أنا لم أحاربها » .





أبو القاسم الشابي
شاعر التغاؤل والتشاؤم

لم تنتكر الحياة لأحد كما تنكرت له ، ولم تتوال الخطوب ، وتساوهم
المصائب أحد فرادى ومجتمعات كما كان الحال معه . إن حياته مأساة كبيرة
انتهت بموت مفاجئ بسبب أمراض لم يفلح الأطباء في السيطرة عليها ، وما
بين البداية والنهاية المبكرة لحياة هذا العبقري فقد هناك تراث خالد خلود
البشرية نسجت عبقريته خيوطه ، قبل أن تودع الحياة في الخامسة والعشرين
من العمر الذي لم يكتب له أن يمتد أكثر من ذلك !!

إن حياة الأديب والشاعر الوجداني والفيلسوف المتأدب «أبو القاسم
الشابي» قصة غريبة غاية الغرابة حول صاحبها جميع الهزائم إلى نصر
مدوى ، وإنجاز هائل ، حتى رغم سنين عمره القليلة .

ورغم ما لقيه هذا الشاعر العظيم من مصائب ، وخطوب ، ومتاعب ،
وهوم لا قبل لشاب في مقتبل العمر بها إلا أنه حول اليأس إلى أمل ،
والتشاؤم إلى تفاؤل ، وعندما وجد نفسه على شفا السقوط والاستسلام ،
قاوم ، وصمد ، واتخذ قراره بالبقاء والعمل دون أن ينظر إلى أيامه المحدودة
في الحياة .

إنه من هؤلاء العباقرة القلائل الذين تمسكوا بالحياة وابتسموا لها ،
وتغنوا بها ، حتى إنه أطلق على ديوانه الذي ضمن فيه كل ما كتبه من أشعار
«أغاني الحياة» .

ولكن وطأة المرض وسجن الفراش ، والإحساس بدنو الأجل كان
يقتحم عليه تفاءله من وقت لآخر ليتمنى الموت حتى يتخلص من آلامه

وأحزانه ،لقد كانت حياة أبى القاسم الشابى تتأرجح بين الحياة والموت .
التفاؤل والتشاؤم .. الأمل واليأس .. الحب والكراهية .. اللذة والألم .
السعادة والتعاسة ..

ووسط كل هذه الصراعات النفسية ، والمعاناة الجسدية التى تولدت
عن مرض القلب اللعين ثم الرئة ، عاش أبو القاسم - ورغم ذلك - لم يجر
الإنسانية من شريان حيوى يمدّها بأحد موارد الشعر الروحانى السامى .

وعندما تلقى نظرة سريعة على حياة هذا الشاعر العظيم ، نجده إنساناً
عادياً من حيث النشأة حيث ولد فى قرية «الشابية» إحدى ضواحي بلد
«تورز» بتونس فى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٠٩ .

وكان أبوه من خريجي الأزهر الشريف ، فاهتم بتحفيظه القرآن .
وتعليمه اللغة العربية ، والتحق بجامعة الزيتونة وتخرج من كلية الحقوق عام
١٩٢٩ بعد أن كون لنفسه ثقافة عظيمة من خلال إطلاعه الواسع .

وفى مطلع عام ١٩٣٣ ، بعد تخرجه بأربعة أعوام فقط نشر أبو القاسم
قصيدة لأول مرة بمجلة «أبو اللو» فى مصر عنوانها «صلوات فى هيكل
الحب» التى كانت بمثابة ثورة فى عالم الشعر ، وإيداناً بإنضمام شاعر عظيم
إلى الذين سيخلدهم التاريخ من شعراء العربية المبدعين .

ففى هذه القصيدة الرائعة أو «الصلوات» قصة حب عنيفة عاشها
الشاعر ، وخرج منها بمأساة أخرى تضاف إلى سجل حياته الحافل بالمآسى
فقد فقدها كما فقد أبيه وكما فقد ذويه وكما فقد صحته .

فى هذه القصيدة قصة الحب التى عاشها بكل جوارحه مع محبوبته التى
لم يكن ينظر إليها كما ينظر غيره من الرجال إلى محبوباتهم ، وإنما كان يراها

هيكلاً للعبادة أو محراباً للنور والطهر والعفاف ، أو كعبة لسدنة الفن ، ولكن
الموت اختطف حبيبته فبكى ورتل أناشيده العاطفية الحزينة في لحن شجي
وكلمات مؤثرة.. انظر إليه يقول :

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام
كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما الضحوك كالليلة القمراء
كالورد ، كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال
وشباب منعم أملود^(١)
يا لها من طهارة ، تبعث التقديس
في مهجسة الشقى العنيد
يا لها من رقة تكاد يرف الورد
منها في الصخرة الجلمود^(٢)

ويمضى أبو القاسم مصورا مدى ما كانت حبيبته تمثله له في حياته
الملبئة بالكآبة والحزن والأسى فيقول :

أنت تحيين في فؤادى ما قد
مات في أمسى السعيد الفقيـد
وتشيدين في خسائب روحى
ما تلاشى في عهدى المجدود^(٣)

(١) أملود : ناعم .

(٢) الجلمود : الشديد الصلابة .

(٣) المجدود : المنعم .

من طمـوح إلى الجمال إلى الفن
إلى ذلك الفضاء البعيد
وتبشـين رقة الشوق ، والأحلام
والشدو ، والهوى ، في نشيدى^(١)
بعد أن عانقت كآبة أيامى
فسؤادى ، والجمت تغريدى^(٢)
أنتِ أنشودة الأناشيد غناك
إله الغناء ، رب القصيد
فيك شب الشباب ، وشحه السحر
وشدو الهوى ، وعطر الورود^(٣)
وينقل أبو القاسم لمحبوبته إحساسه بالموت ، وشعوره بالفناء فيقول في
نهاية القصيدة :

إنقلدني من الأسى ، فلقد أمسيْتُ
لا أستطيع حمل وجـودى
في شعاب الزمان والموت أمشى
تحت عبء الحياة جم القيود
وأماشى الورى ونفسى كالقبر
وقلبى كالعالم المهدود
ظلمة ما لها ختام ، وهول
شائع في سكـونها الممدود

(١) الشدو : الغناء .

(٢) الجمى : كبلت وقيدت .

(٣) وشحه : زينته .

وقد عبر أبو القاسم في قصائده الوطنية والغزلية والفلسفية التي يحملها ديوانه عن حياته المليئة بالكفاح والشقاء والألم ، والعامرة بالأحزان ، والحرمان ، والمغمورة بالكآبة والأسى حيث توفي والده وهو صغير ، ثم ماتت الفتاة التي أحبها ، ولم يوفق حتى في حياته الزوجية ، ثم أصيب بمرض تضخم القلب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو لتوه يتفتح للحياة .

يقول أبو القاسم في قصيدته المشهورة « إرادة الشعب » التي يحفظ الملايين من العرب مطلعها :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر

وقد كان أبو القاسم أيضاً مجدداً جريئاً ، صاحب دعوة تقدمية كبيرة في الأدب الحديث . كان يريد أن يكون الصدق هو الركيزة الأساسية في القصيدة وأن تكون الوحدة العضوية ، وحدة الموضوع والجو النفسى أهم من الجرح المفرط على شكل القصيدة على حساب هذه الوحدة .

ومن أهم أقوال هذا الشاعر العظيم التي تصور موقفه واتجاهه :

« إذا قرأنا لشاعر وجدنا فيه إنساناً من لحم ودم ، يحيا ويتنفس ، يشعر ويفكر ، ويتجاوب معنا بالعاطفة والأحاسيس والخيال ، ينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومحقراته - إذا وجدنا هذا الشاعر فلنقرأه في ثقة وإيمان .. فإنه الشاعر حقاً » .. رحم الله أبا القاسم .





جورج برناردشو

لدغه الغقر فصار عظيماً !!

هذا أخذ العظماء الذين لدغهم عقرب الفقر ، وبث فيهم سمه القاتل ، ولكنهم استطاعوا أن يتجاوزوا المحنة ، وينطلقوا إلى آفاق المعرفة ، ويرتادوا طرقاً جديدة لم يسبقهم أحد إليها ، ليخرجوا في النهاية إلى العالم بنتاج بشرى عملاق ، لا يصدر إلا عن عبقرى قد لا تكبله ليالي الجوع أو سنوات الشقاء والعوز والحاجة .

كان « جورج برناردشو » واحد من القلائل الذين يأتون إلى الحياة لكي يسبقوا عصرهم ، كانت أفكاره السياسية والاجتماعية تلقى الضوء على مشكلات مزمنة في المجتمع الإنجليزى والأوروبى والعالمى ، وتنبأ بها سيأتى بعد وما يتعين عمله .

لقد عاش شو فيا بين عامى ١٨٥٦ - ١٩٥٠ تلك الحقبة التى كانت تتفجر بالانجهاات والأيدولوجيات المختلفة ، وكانت تمتلىء بالانتصارات العلمية ، والحروب الاستعمارية ، والتزمت السدينى فى أوربا ، مع وجود أصوات قوية تنادى بالتحرر من التقاليد وسلطان رجال الدين .

كما كان العصر الذى ظهر فيه شو هو عصر تحرير المرأة ، ومطالبتها المساواة بالرجل ، كما شهد العصر حربين عالميتين جعلت الناس فى كل مكان يرتجفون بشدة .

فى هذا العصر ولد شو بمدينة دبلن بأيرلندا فى أسرة فقيرة تجمع كل المتناقضات ، وتحيا فى جو غير مستقر لا يبعث الأمان فى قلب الصغير .

وفى الوقت الذى لم يعبأ أبوه باحتياجات أسرته الفقيرة الأساسية ، وراح يشرب الخمر ، وي مارس أسوأ العادات القبيحة ، كانت أمه على النقيض تماماً

فقد كانت عاشقة للموسيقى ، دثة الخلق ، مرفهة الحس ، رقيقة المشاعر .

ويقول شو : إن طفولته الأولى كانت بالنسبة له بلا معنى ، وبلا فائدة ، حيث إنه لم يتعلم فيها شيئا ، حتى إنه لم يعرف القراءة إلا في سن متأخرة نسبيا عن أقرانه .

وبينما كان شويارس أعمالا كثيرة لكى يحصل على قوت يومه ، بينما يذهب أقرانه من أبناء الطبقات المقتدرة إلى المدارس والجامعات ، كان يلتهم كل ما يأتى فى طريقه أى أن ثقافته الحقيقية كانت ثمرة لمطالعاته الاختيارية ؛ كما أخذ ينمى مواهبه الموسيقية ، وعشقه لهذا الفن الذى ورثه عن أمه .

وفى سن الرابعة عشرة عمل شو كاتبا لدى سمسار عقارات فى دبلن ؛ ولكن العمل كان مرهقا ، وصاحبه كان رجلا فظ ، غليظ القلب ، متحجر المشاعر يريد له العمل طوال الليل والنهار دون عائد مجز يكفى حتى لالتهام ما يعينه على عمله الذى كان أيضا يتطلب السير لمسافات طويلة للغاية ، وهكذا عجز شو عن الاستمرار كصبي عقارات - كما يقول - فانتقل إلى لندن .

وامتدادا لسنوات الشقاء والكفاح فى خضم الحياة التى وجد شو نفسه فيها ، قضى تسع سنوات فى فاقة وعسر ، وحاول جاهدا أن يعمل ناقدًا موسيقيا فلم يفلح ، كتب عدة كتب مدرسية وقصص للأطفال رفضها الناشر دون سبب أو مبرر مقنع .

وعمل شو فى شركة كهربائية ، وأيضا لم يستمر ، وحاول رفاقه انتشاله من الجوع والتشرد ، وإعانتته على مواجهة نفقات الحياة الصعبة فى لندن .. حاولوا الحصول على عمل شريف له ، وأيضا لم يفلحوا ، وربما كان يقيه من

الجوع من وقت لآخر تلك النقود القليلة التي قد تبعث إليه بها أمه إذا ما قامت بتدريس الموسيقى لأحد الهواة بالصدفة .

وهنا بدأت قصص شو ترى النور ، وخاصة قصصه الخمس الأولى « المراهقة » و « العقدة السخيفة » و « حب الفنانين » و « مهنة كاشل بيرون » و « الاشتراكي غير الاجتماعي » ، ومع ذلك فقد كانت قصة « مهنة كاشل بيرون » هي بدايته الحقيقية ، حيث طلب منه أحد من تعرف عليهم من مخرجي المسرح تحويلها لمسرحية فحولها شو إلى هزلية شعرية بعنوان « الوفاء الضائع » .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد شو ضالته المفقودة في المسرح ، ومن هنا بدأ كتابة أعماله العظيمة التي جعلته بشهادة جميع النقاد أعظم كُتَّاب المسرح الإنجليزي بعد وليام شكسبير .

وبدأ الحظ يتسم أيضا لشو عندما عمل بالصحافة وكان يقدم للكتب الجديدة بمجلة « بول مول » والصور لمجلة « العالم » ، والموسيقى لمجلة « ستار » ، والمسرح لمجلة « سترداي ريفو » .

وقد كانت كتابات شو كالرصا ص على رموس المتحذلقين والمتأدبين ، ومحترفي الأدب الرديء ، كما كان ناقدا موسيقيا عظيما جعل للنقد الموسيقى في عصره شأنا عظيما ، حيث قرب أيضا الموسيقى إلى الأفهام وجعلها في متناول قطاعات عريضة من الجماهير .

وهجا شو مشاهير المسرح والموسيقى في عصره ودافع ومدح مشاهير آخرين رأى أنهم يقدمون قيمة فنية سامية ، ويطرحون على الناس أفكارا إصلاحية من شأنها أن تساهم في إيجاد حلول لمشكلاتهم ، وإزاحة ما يثقل على أنفسهم من هموم ومتاعب .

ولأول مرة يتقبل الإنجليز نقدا لاذعا للكاتب العظيم وليام شكسبير ،
وربما لو لم يكتبه شو المحترم بين أوساط المثقفين لما تركوه يفعل ذلك .
واكتشف شو في نفسه فن الخطابة ، فكان يخطب في الناس مهاجماً
الأحكام العرفية التي كانت تُفرض عليهم من وقت لآخر ، ويحاول إلهام
الناس لحقيقتها .

والحقيقة أن شو كان عظيماً في فنه ، كان مسرحه عبارة عن درس تعليمي
وتثقيفي للناس ، فتارة ينصحهم بعد الاستسلام لما فيا الانتخابات ، ويحاول
أن يبين لهم من خلال مسرحه ، كيف سيحاول المرشحون خداعهم ، لكي
يحصلوا على أصواتهم .

ومن مسرحيات شو التي لاقت نجاحاً ساحقاً على المسرح « اندروكليز
والأسد » ، و « بجماليون » ، و « منزل القلوب الكسيرة » و « العودة
إلى متوشالغ » و « تلميذ الشيطان » و « الميجور باربرا » و « بيوت الأرامل »
و « الإنسان والإنسان الأعلى » .

وبعد ما كان يلهث شو وراء لقمة العيش ويصارع الحياة ، ويكابد
متاعبها ، أخذت الأموال تطارده ، ومع ذلك كان شو يتمنى بعقيدته إلى
الاشتراكية القابية التي خرجت من الطبقات الدنيا التي لا تعرف معنى
للحياة لما تعانيه من فقر وحرمان ، وإحساس بالضالة والهوان .

ويظل شو على حاله هذا حتى يحصل على جائزة نوبل في الآداب في
عام ١٩٢٥ ، وكان قدرها وقتذاك ٧٠٠٠ جنيه استرليني وهي تعادل الآن ما
يزيد عن مليون دولار ، وقد رفض شو قبول الجائزة المالية في البداية إلا أنه
تسلمها بعد فترة ، ليقدمها هدية للهيئة السويدية الإنجليزية لنشر الأدب
السويدي في البلاد الناطقة بالإنجليزية .

وبعد نوبل اتجه شو إلى الكتابة السياسية والاجتماعية وقدم عشرات الكتب مثل « دليل المرأة الذكية في الاشتراكية والرأسمالية والماركسية والبلشفية » ، « ما كتبتنه عن الحرب حقيقة » ، « أوهام الأطباء - إجرام لم ينضج وتعليم خسادع » و « مستشفى المجاذيب السياسيين أمريكيًا وإنجلترا » ، و « الدليل السياسى لكل إنسان » .

وظل شو يكتب إلى ما بعد الستين ، فقد كانت الكتابة هى كل حياته ، وقد كان شديد الحفاظ على صحته ، فمثلا كان نباتيا لا يأكل اللحم ، كما أنه لم يدخن أو يتعاط الخمر ، وهو يقول فى ذلك : « اعتقد أن الإنسان الذى يقتات بالأجسام الميتة والويسكى لا يستطيع أن يتج خير ما فى مقدوره » .

ويقول شو العظيم مقبحا عادة التدخين اللعينة : « تحقق لى قبل أن أخرج من دور المراهقة أن من السخف أن ندفع أجرا لمن ينظف لنا مداخن المدفئات فى الوقت الذى نملا غرفنا بالأدخنة القذرة الصادرة عن أحد الأعشاب الكريهة » .

ويُعتبر شو من العظماء القليلين الذين امتازوا بخفة الظل ، وروح الدعابة اللا محدودة التى لم تفارقه حتى وافته المنية فى عام ١٩٥٠ .





نجيب محفوظ

من الحارة إلى نوبل !

في ليلة من ليالى الشتاء الباردة ، وفي إحدى الحارات بحى الجمالية في قلب القاهرة القديمة ، انبعثت من أحد المنازل الصغيرة صرخات سيدة تعثرت ولادتها . حاولت « الداية » قدر جهدها إخراج الجنين ولكن دون جدوى ، حتى اضطرت إلى نصيح الأب باستدعاء الطبيب ، الذى وصل بعد لحظات ، وكان اسمه نجيب محفوظ .

وتمت عملية الولادة ، وخرج الصغير إلى حيث الحياة ، وحلت صرخاته محل تلك التى كان تصدر عن أمه ، وعرفانا بفضل الطبيب الماهر ، وامتنانا له ، واستبشارا به ، قرر الأب أن يطلق اسمه على وليده ، فصار اسمه « نجيب محفوظ » وظل حتى يومنا هذا .

ومنذ اليوم الحادى عشر من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وإحدى عشر والجنين الذى تعثرت خطواته الأولى في الحياة ، يسرع الخطى نحو ما ينتظره من مجد وفخار ، وكان أول المشوار هو حارته الصغيرة التى نشأ في أحضانها .

فالحارة هى عالم نجيب محفوظ الأديب المصرى والعالمى الكبير سواء حملت هذه الحارة اسما كما هو في أعماله الأولى « أولاد حارتنا » و « الخرافيش » و « السكرية » و « بين القصرين » ، « قصر الشوق » ، « زقاق المدق » أو جاءت بلا اسم كما هى في أعماله الأخيرة .

لقد قضى نجيب محفوظ سنوات عمره الثلاث عشرة الأولى في حى الجمالية الذى ترك أثرا كبيرا عليه وشكل وجدانه ، وكان دوما منبع إلهامه الذى جعله يبدع في تصوير الأماكن التى تقع فيها أحداث رواياته ، ويبرع

فى رسم شخصياته بكل ما تجمعه من نماذج بشرية مختلفة ، وعلاقات إنسانية متباينة كما هو الحال فى روايتى « أولاد حارتنا » و « الحرافيش » .

ويؤكد نجيب محفوظ فى أكثر من مناسبة أن تقدم العمر من شأنه أن يؤكد للإنسان أن أصله هو الحقيقة الباقية فى هذا العالم الغريب . إن العودة إلى الطفولة مع تقدم سنى العمر ، هى عودة إلى الأمان المفقود ، الحارة هى ملاذ وملجأ نجيب محفوظ الدائم .

فمنذ أن أخذ نجيب محفوظ يشب عن الطوق ، وهو يحاول التعرف على حارته الصغيرة ، والحنى القديم الذى تقبع فيه حيث رائحة التاريخ ، وعبق الماضى ، حيث المآذن القريبة ، والمساجد العتيقة ، كالأزهر والحسين والغورى والأقمر وبرقوق .

منذ ذلك الوقت ونجيب محفوظ يحتزن فى خياله كل صغيرة وكبيرة عن حيه : ما يحويه من أناس وما يضمه من أماكن تضرب فى أعماق التاريخ ، وعندما كبر الغلام ، وحاول أن يسترجع فى رواياته ، ما ألم به من قبل ، برع فى تصوير « المحلية » وأبدع فى نقلها حتى وصل بها إلى « العالمية » حيث أصبحت تراثا إنسانيا قريب من وجدان كل البشر ، وفى شتى أنحاء المعمورة .

ولم تكن سنوات محفوظ الثلاث عشرة فى الجمالية ثم انتقاله إلى العباسية هى فقط التى أثرت فيه ؛ وإنما كانت هناك أسرته التى كانت تغلب عليها النزعة الدينية وأمه التى كانت تصحبه إلى أماكن أثرية وتاريخية تلهب مخيلته ، وتستثير وجدانه ، وتستدعى قدراته ومواهبه الفطرية .

كما شهد محفوظ وهو طالب بالمدرسة ثورة ١٩١٩ ، والمظاهرات ضد المحتل الغاصب ، وسقوط الشهداء برصاص الجنود الإنجليز ، ودراسة القانون ؛ وبعد ذلك الأحداث التي داهمت مصر والعالم العربى من حروب وثورات وانقلابات وأحداث وخطوب شتى .

ومن عوامل التكوين الفكرى لنجيب محفوظ قراءاته الأولى المترجمة (سير والتر سكوت ، وسير هنرى رايدر هيجارد) ، وكيف كان يعيد كتابة القصة التى يقرأها مع إضافة بعض التفاصيل من حياته الخاصة ، ثم قراءاته للمنفلوطى وطه حسين والعقاد ويحى حقى والحكيم ومحمد حسين هيكل ، وسلامة موسى .

ولسلامة موسى مكانة خاصة لدى محفوظ ، فهو الذى نشر له أول مقالة له بمجلة « المجلة الجديدة » التى كان يصدرها فى الثلاثينات ، كما نشر له سلامه موسى أولى رواياته « عبث الأقدار » .

ولم يقف نجيب محفوظ عند هذا الحد من القراءة ؛ بل عاد إلى الأدب العربى القديم يغترف منه ثم اتجه إلى الفلسفة ، والأدب العالمى فقرأ « لتولستوى » و « بريخت » و « توماس مان » ، وغيرهم ممن ظهر أثرهم جليا فى أعماله ، حيث تأثر ببعض أفكارهم ، واتجاهاتهم .

وربما لا يعرف البعض أن روايات محفوظ التى بدأ بها حياته كانت « فرعونية » تتحدث عن التاريخ الفرعونى القديم مثل « عبث الأقدار » ، « رادوبيس » و « كفاح طيبة » .

ولكن ما أن جاء عام ١٩١٧ حتى بدأ الأديب الكبير فى كتابة « ثلاثيته الخالدة » ، التى صور فيها ما يدور فى مصر من حياة سياسية واجتماعية

واقتصادية خلال الفترة من ١٩١٧ مروراً بـ ١٩١٩ ، وحتى عام ١٩٤٤ أى أن الثلاثية « بين القصرين » ، « قصر الشوق » ، و « السكرية » تبدأ في منتصف الحرب الأولى وتنتهى مع نهاية الحرب الثانية .

ثم كتب نجيب محفوظ رواةة « اللص والكلاب » ، « السمان والخريف » ، « الطريق » ، « الشحاذ » ، « ثرثرة فوق النيل » ، « ميرamar » ، « الكرنك » ، « قلب الليل » ، « أفراح القبة » .

ولم يكن الأديب العظيم مجرد روائى فذ وإنما لولم يكتب الرواية واكتفى بما قدمه من قصص قصيرة لكان أيضاً دخل تاريخ الأدب العربى بجدارة ، فله حوالى مائتى قصة قصيرة موزعة على أربعة عشرة مجموعة قصصية فى الوقت الذى كتب فيه ٣٣ رواية معظمها أعمال رائعة سواء من ناحية الشكل أو المضمون والرؤية .

وقد شهد العالم كله ببراعة نجيب محفوظ فى فن الرواية والقصة القصيرة ، وعاش معه عوالم مختلفة تضم الشرفاء والمجاهدين ، والخونة والمتآمرين والخارجين على القانون والمتمردين على حياتهم وطبقاتهم ، وأولاد الذوات ، وأولاد الفقراء ، لقد صور محفوظ نماذج مختلفة من البشر بمنتهى الدقة والروعة والجمال .

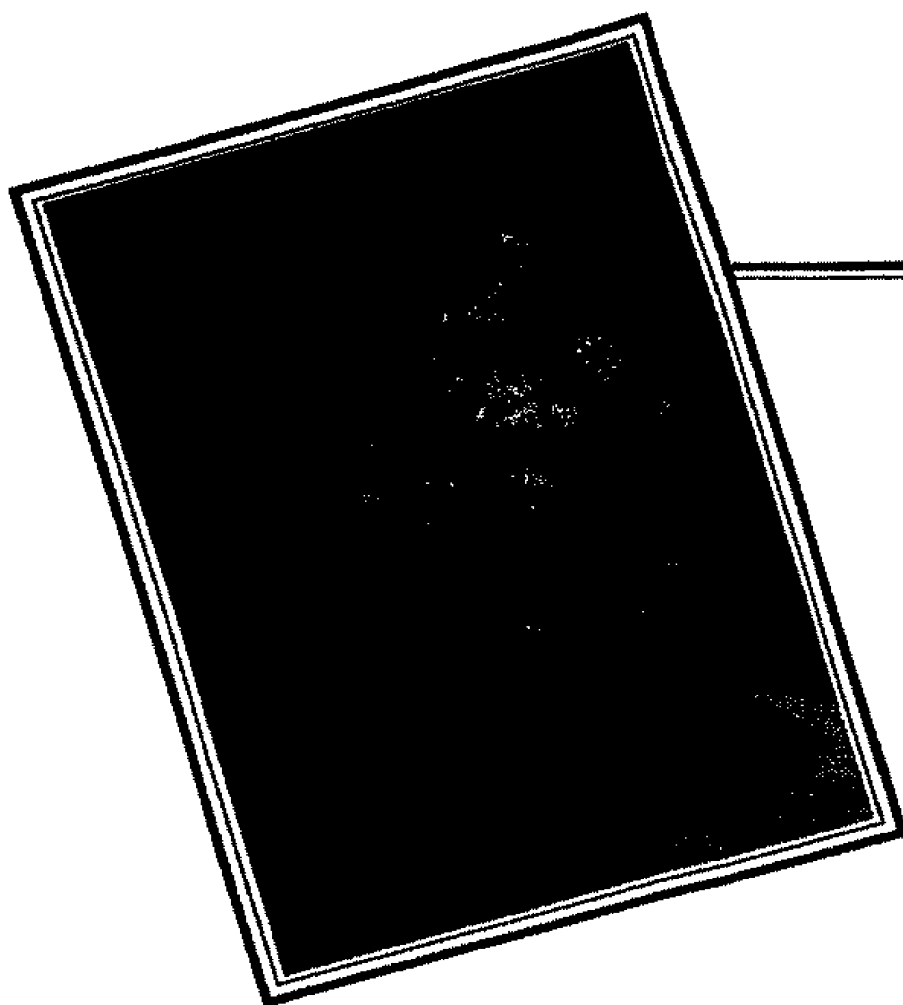
ورغم حصول الأديب العملاق على جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٨ ، إلا أن إعلانه فائزاً بهذا التقدير العالمى جاء متأخراً عن مواعده ، فأعمال محفوظ التى استحق عنها الجائزة بجدارة موجودة ومترجمة للغات عالمية عدة منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، إذن فمنحه الجائزة كان بمثابة اكتشاف جديد لواقع قديم .

ويبدو أن هذا هو الأمر الذى حد من سعادة وغبطة محفوظ بالجائزة ، حتى أنه قال : « إننا لا يعنيننا نوبل ولا غير نوبل » . وقال : « لو جاءت نوبل مبكرا فى صدر الشباب أو بعد ذلك بقليل لربما كانت ذات طعم ومزاق آخرين ولكن فى نهاية العمر لا تعنى مثل الشيء » .

وكم كان محفوظ عظيما عندما قال - عقب إعلان فوزه بالجائزة : « إنها أخطاء قمم عربية كبيرة سواء أدبية أو فكرية سبقته أمثال عميد الأدب العربى الراحل الدكتور « طه حسين » ، والمفكر الكبير الراحل « عباس محمود العقاد » ... وغيرهم » .

هذا هو نجيب محفوظ الذى ولد ونشأ فى أحضان الحارة المصرية ثم بلغ أعظم ما يمكن أن يصل إليه أديب فى العالم ، لقد أطفأ نجيب محفوظ الشمعة رقم ٨٢ فى حياته فى ديسمبر ١٩٩٣ ، ولكن هذه الشموع الـ ٨٢ ليست كل ما أضاء به حياتنا من شموع ، فأعماله العظيمة ، باقية أبدا وضاءة ، متوهجة فى وجدان الشعب المصرى والعربى والعالمى ، فقد حفر هذا الأديب . الفد بأدبه صورة خالدة لمسيرة شعبه منذ أوائل هذا القرن فأرخ الأدب ... أو أدب التاريخ ، وجعل أدبه صورة ناطقة ، ومرآة عاكسة لكل ما يدور فى مجتمعه حتى أبدع فى تصوير « المحلية » ووصل بها إلى « العالمية » لكى يتأثر بها ، وينفعل معها ، كل قارئ فى أى مكان بالعالم ، وهذه عظمة نجيب محفوظ ! .





ابراهيم لنكولن
مدرس العبيد

عندما وصل المحامى المبتدئ الطويل القامة ابراهام لنكولن إلى سبرنجفيلد ، عاصمة ولاية إلينوى الأمريكية ، كان لا يملك سوى أصابع يده ، وكيسين من القماش بهما آخر ما تبقى من ملابسه ، التى لم تكن سوى سروال أكل عليه الدهر وشرب ، وقميص بالكاد تستطيع أن تميز لونه الباهت المسروح من كثرة الاستعمال ، وجاكيت سىء المنظر يقبه برد الشتاء القارس .

كان لنكولن عند وصوله من قريته المتواضعة القريبة من المدينة واسمها « نيوسيلم » فى غاية البؤس ، غارقاً فى ديونه حتى أذنيه ، ولم يكن معه أية نقود يمكن أن يسكن بها أحد المنازل ، حتى الحصان الذى جاء المدينة على ظهره كان قد استعاره على سبيل الأمانة .

وحتى لا يهيم لنكولن على وجهه فى الشوارع ليلاً ونهاراً ، أو يضطر للعودة من حيث أتى ، عرض عليه أحد أصحاب المتاجر أن يشاركه غرفة نومه القابعة أعلى المتجر بعد ما أحس بمدى نقاء سريرة صاحبه ، وكرم خلقه ، ونبل مقصده .

وبدت الحياة صعبة أمام الشاب الوسيم الذى كان يستطيع أن يجعل مستمعيه يستمرون فى أماكنهم بلا حراك من حلاوة حديثه ، وعذوبة كلماته .

فى البداية ، بدأ يزاول لنكولن أية أعمال يرتزق منها ، كما اشتغل بالأرض كى يجد ما يسد به رمقه ؛ ولكن وبعد دراسة مستفيضة وواسعة فى القانون

أصبح لنكولن شريكا أصغر لأحد المحامين الكبار ، وكان لنكولن بالنسبة لشريكه في البداية ضئيل الشأن ؛ حتى أثبت مواهب وقدرات لم يألّفها الناس من قبل ، كما كان يتمتع بصفة خاصة بقوة تأثير طاغية يمكنها تغيير أى اتجاه ، أو تقويم رأى ، أو تعديل سلوك .

ورغم الصعوبة التى وجدها لنكولن في البداية في سبرنجفيلد والإحساس الذى كان عليه القوم هناك يصدرونه إليه دائما بأنه يفتقد الميزات التى يكفلها الانتساب إلى أسرة عريقة والاختلاط بالمجتمع .

ولكن وبالنظر إلى الجرح العميق الذى خلفته هذه التفرقة المميّنة في نفس لنكولن ، إلا أنه كان دوماً يفتخر بأنه ابن لأبوين فقيرين غير متعلمين ولكنها مستقيمان بخشيان الله .

وقد أحب لنكولن في تلك الفترة فتاة أرستقراطية تدعى « مارى تود » ، وأخذ يتردد على الأسرة ، ويخرج معها حتى أفضى كل منهما إلى صاحبه بحب طاغ للآخر يملأ عليه كل حياته .

وفي أواخر عام ١٩٤٠ تمت الخطبة وتزوج الحب ملكا على عرش المحبين ، ولكنه حب لا يخلو من أزمات عاطفية ، ومشكلات عائلية بسبب معارضة والديها لزواجها من لنكولن المتواضع .

وقد جدد هذا الفشل الجراح ، وأثار ذكريات مريرة كان يحاول لنكولن نسيانها ، فقد جعله يشعر بنقصه الاجتماعى ، والفقر الذى يلزمه كظله ، وتواضع نشأته التى يعاقبه عليها مجتمع ظالم ، ولك أن تعرف أن لنكولن نفسه هو الذى طلب فسخ الخطبة حفظا لماء وجهه ، وحفاظا على كرامته ، وانفصل الحبيبان فترة من الوقت ؛ ولكن سرعان ما جمعها الحب من جديد

الذى كان أقوى منهما وقررا الزواج ، بل وذهبا إلى القيس وحددا اليوم واثارت أسرة مارى ، وشنت حربا لا هوادة فيها ضد لنكولن الفقير ، ولكن القدر كان له الحكم الأخير وتوجت قصة الحب فعلا بالزواج الذى استمر حتى نهاية العمر .

وقد ساعد زواج لنكولن على استقراره النفسى ، واهتمامه بعمله ، وتركيزه فى مشاركته السياسية والاجتماعية فى « سبرنجفيلد » حتى تم اختياره عضوا بالمجلس التشريعى بالولاية ومنذ ذلك اليوم علاقده ، وبزغ نجمه ، وقد ساعد على ذلك اختياره قضية خطيرة كأهم موضوع فى حياته ، وأكبر الأهداف التى يسعى نحو تحقيقها ، هذه القضية هى « الرق » .

ويمكن القول إن موضوع « الرق » أو تجارة العبيد والتفرقة المهيمنة بين السادة والعبيد كانت هى بداية الطريق الذى سار بصاحبه إلى العظمة والمجد والخلود .

لقد كان للنكولن صولات وجولات وخطب ، ومقالات واجتماعات ونداءات للقضاء على الرق وتحقيق المساواة ، ورفع شعار « لا سيد ولا عبيد كلنا سواسية » ، وقد لاقى لنكولن حربا ضارية شنها ضده الإقطاعيون الذين يجنون الثروات من تشغيل العبيد الذين قاموا بشرائهم هم ومن سيأتى من نسلهم ، كما تعرض ذات مرة لمحاولة اغتيال بسبب إصراره على القضاء على العبودية .

وقد كان لنكولن خطيبا مفوها ، وسياسيا لبقا ، ومفكرا واعيا ، ورجل إصلاح أمين ، وفى عام ١٨٥٨ رشح لنكولن نفسه لمجلس الشيوخ الأمريكى .

وكانت حملة لنكولن الانتخابية كلها ثورة على نظام العبيد ، وحربا ضارية ضد أنصار السخرة والقيود ، واللا إنسانية ، وقد كان للرجل خصم عنيد هو « ستيفن دوجلاس » ، الذى شهدت الانتخابات معركة دامية بينهما خرج منها دوجلاس فائزا ؛ ولكن لنكولن أصبح فى نظر الأمريكيين شخصية قومية ، ورجلا يستحق المساندة والتأييد . صحيح لم ينجح فى المدينة ولكنه كسب تأييد جميع الولايات ولم يمضِ عامين حتى كسب لنكولن ترشيح الحزب الديمقراطي له لرئاسة البلاد .

وهكذا أصبح الشاب الفقير البائس لنكولن رئيسا للولايات المتحدة ، وعلى يديه تم إلغاء نظام العبيد وأصبحت أمريكا مكانا يتسع للجميع ، يقتسمون خيراتها ، ولهم نفس الحقوق والواجبات .

ومع نجاح لنكولن الساحق وتأييد الأمريكيين له إلا أن خصومه كانوا يرقبونه ، ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه ، وفى يوم الجمعة الرابع عشر من أبريل عام ١٨٦٥ ، انطلقت رصاصة غادرة صوب صدره سرعان ما أردته قتيلا . مشهد يشابه إلى حد كبير مصرع الرئيس الأسبق « جون كينيدي » ، فكما كانت تجلس بجانبه زوجته « جاكلين » كانت « مارى » تجلس إلى جانبه عندما قُتِلَ ليتركها هى وأولادها الأربعة يقاسون الفراق .

وودع العالم لنكولن محرر العبيد وسط حزن بالغ خاصة لتاريخ الرجل الطويل ، وكفاحه لتحرير الإنسانية المعذبة من القيود والأغلال .



مصادر الكتاب

- ١ - محاكمة سقراط - بدوى أبو ديب .
- ٢ - محمد على الكبير - شفيق غربال .
- ٣ - بناء النهضة العربية - جرجى زيدان .
- ٤ - هذا مذهبي - طه حسين .
- ٥ - تيارات ومذاهب فنية وأدبية - عبد المنعم الحفنى .
- ٦ - عباقرة رحلوا زهوياً - فايز فرج .
- ٧ - التعريف بشكسبير - عباس محمود العقاد .
- ٨ - أشعار بيرم التونسي - مكتبة مدبولي .
- ٩ - لماذا انتحر هؤلاء - هانى الخبير .
- ١٠ - فرام العظاء - إيرلنج وآمى والس .
- ١١ - الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله « صلى الله عليه وسلم » - أنيس منصور .
- ١٢ - لكل فنان قصة - حسين بيكار .
- ١٣ - روائع الفن العالمى - جمال قطب .
- ١٤ - أشهر الرسامين والموسيقيين - سعيد جودة السحار / جمال قطب .
- ١٥ - بلابل من الشرق - صالح جودت .
- ١٦ - الأيام - طه حسين .
- ١٧ - شخصيات مصرية - د. أحمد عبد الرحيم مصطفى .
- ١٨ - عباس محمود العقاد - يوسف الحمادى .
- ١٩ - عالقة من صعيد مصر - محمد صادق .
- ٢٠ - بيرم التونسي - كمال سعد .
- ٢١ - فى تلك السنة هؤلاء العظاء ولّدوا معاً - أنيس منصور .
- ٢٢ - خطباء صنعوا التاريخ - أنور أحمد .



فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	إهداء
٧	تقديم
١١	○ سقراط .. فيلسوف كل العصور !
١٩	○ محمد علي .. أعظم الحكام في التاريخ !
٣١	○ ليوناردو دافنشى .. وأجل ابتسامة عرفها العالم !
٣٩	○ بيرم التونسي .. مأساة تنتهى بمأساة !
٥٧	○ وليام شكسبير .. عبقرية تجاوزت حدود الزمان والمكان !
٦٣	○ محمد عبده .. زعيم الاصلاح الفكرى والدينى
٧١	○ توماس أدبسون .. الفاشل الذى أضاء لنا الدنيا !
٧٧	○ عبد الله النديم .. عامل التلغراف أعظم أدباء عصره !
٨٥	○ رمبرانت .. أعظم مصور أنجبه البشرية !
٩٥	○ كونفوشيوس .. فلسفة أم مذهب أم نظام حياة ؟
١٠٣	○ سيد درويش .. أسطورة لم تنته بعد !
١١١	○ فان جوخ .. المليونير الفقير !
١١٧	○ طه حسين .. كروان لم ينقطع عن الدعاء !
١٢٩	○ شارلى شابلن .. عبقرية وراءها مأساة !

الموضوع	الصفحة
○ عباس محمود العقاد .. أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء	١٣٧
○ غاندى .. لسان حال الضمير الإنسانى	١٤٥
○ أبو القاسم الشابى .. شاعر التفاضل والتشاؤم	١٥٣
○ جورج برنارد شو .. لدغته الفقر فصار عظيماً	١٦١
○ نجيب محفوظ .. من الحارة إلى نوبل	١٦٩
○ إبراهيم لنكولن .. محرر العبيد	١٧٧





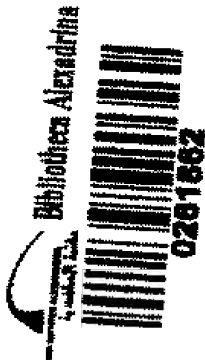


تكثر في هذا العصر الدعاوى المغرضة ، والآراء الهدامة ، التي تحاول أن تجرد عظماء التاريخ من عظمتهم ، وتفرغ تراث الإنسانية الخالدة من محتواه . وهناك عمليات إبادة تاريخية ، تستند إلى كتاب ماجورين ،

مهمتهم اغتيال مكانة عمالقة عاشوا بيننا ذات يوم ، وأثروا حياتنا الفكرية والثقافية . كما يردد البعض مقولة سخيفة مفادها أن البطل ليس بطلاً باختياريه ، وإنما نتاج اضطراري لعصره ، وهذا يجرده بالطبع من الإرادة ، والإصرار على الكفاح التابع من الإيمان بقضية معينة .

وهذا الكتاب محاولة لتسليط الضوء على بعض عظماء التاريخ ، والطريق الصعب الذي قطعوه ، والظن الفادح الذي دفعوه حتى بلغوا ما وصلوا إليه ، كمحاولة للتواصل مع جذور تراثنا الإنساني حتى لا نرقص في الهواء بلا قدمين !! .

الناشر



طبع
نشر
توزيع

دار الأمين
DAR AL AMEEN



١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق خلف قاعة سيد درويش الهرم - الجيزة
٢ ش محمد محمود باب اللوق (برج الأطباء) القاهرة ت : ٣٥٥٨٤٦١

To: www.al-mostafa.com